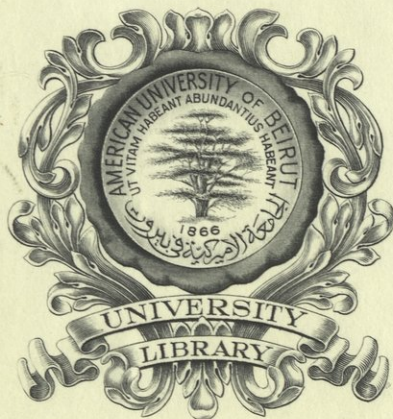
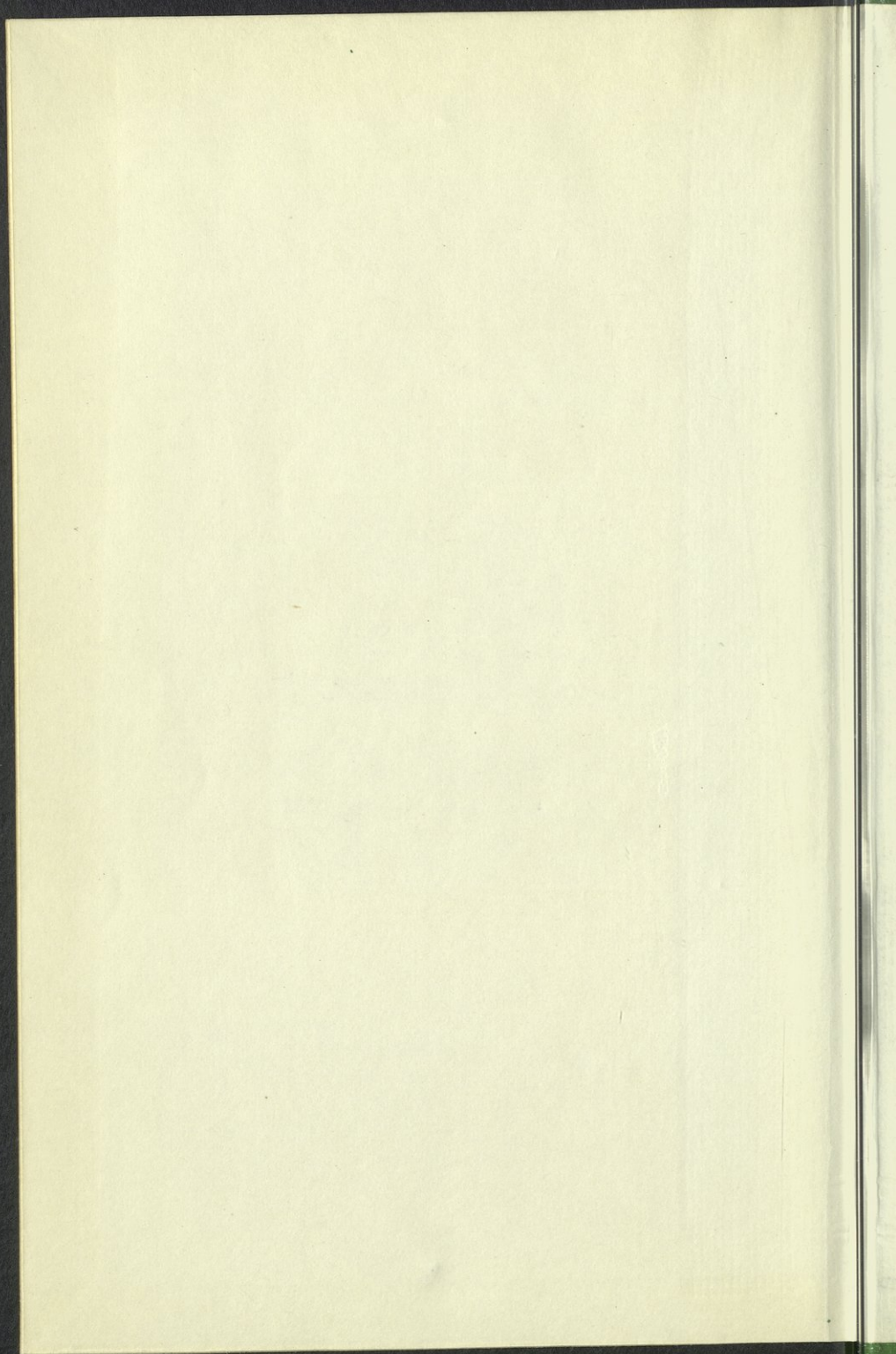
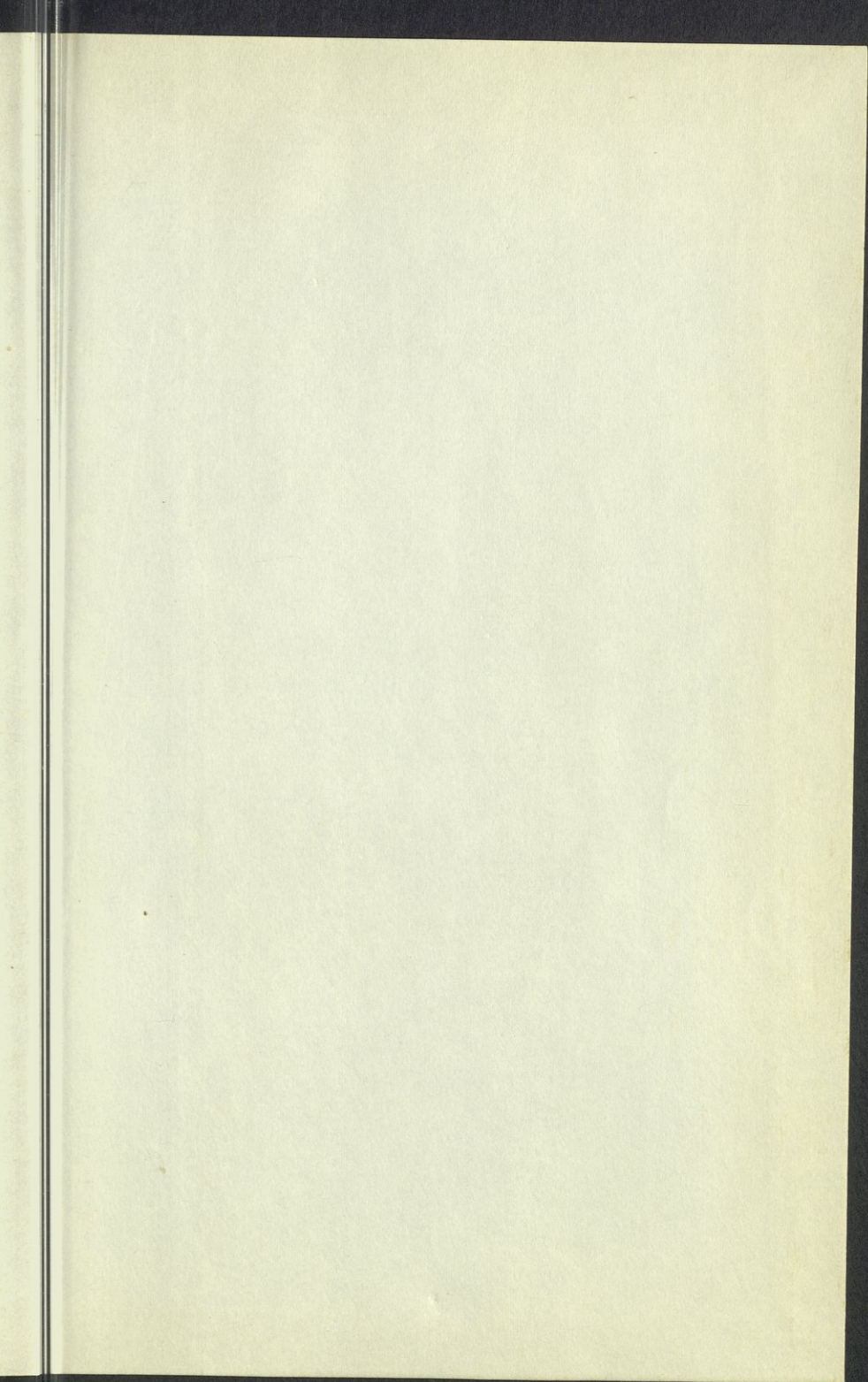


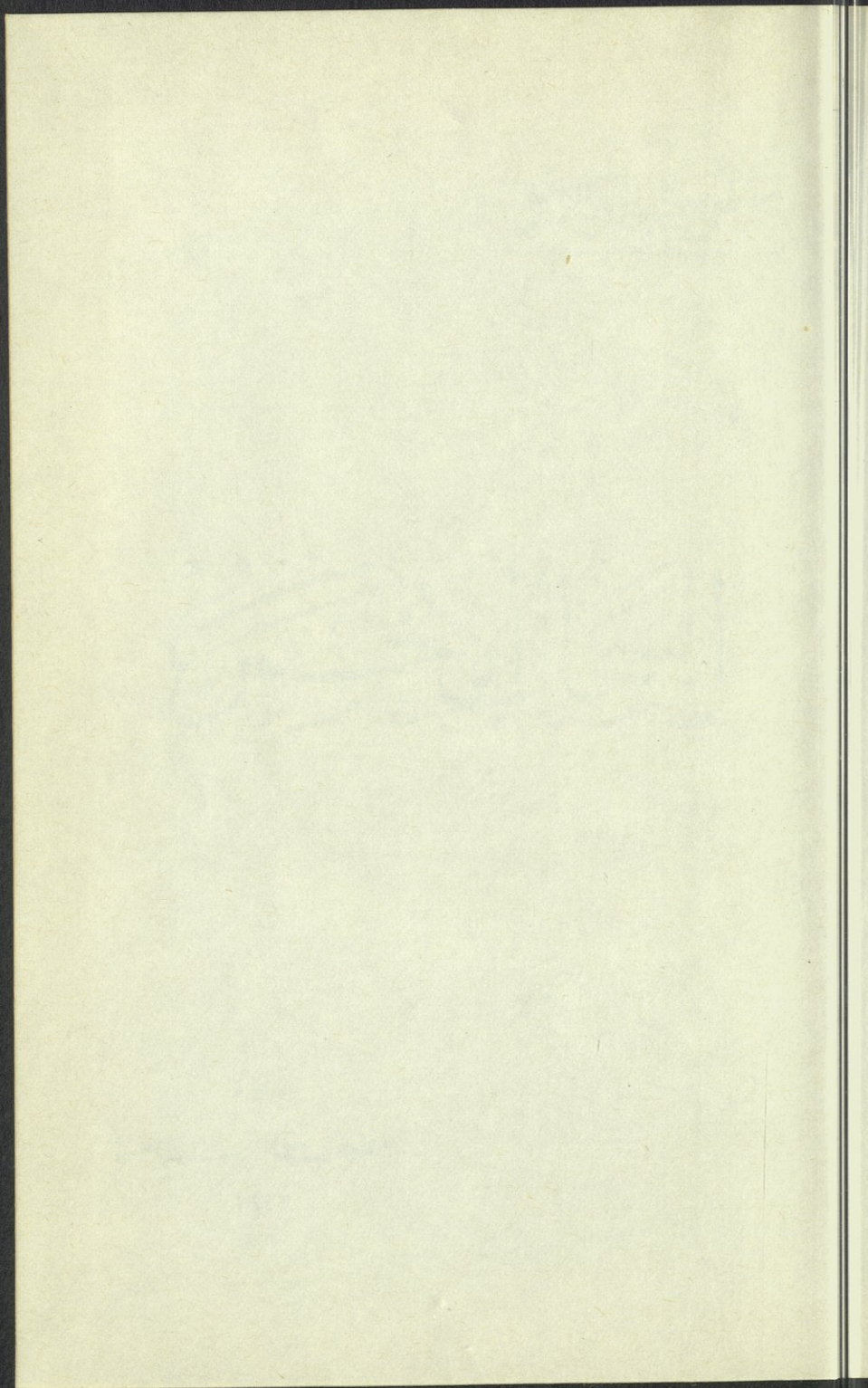


AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT









Cat Nov. 1945

892.77

892.77
R 138 shA
C.1

مصطفى صادق الرافعي

892.78
R 138 shA
C.1

السَّحَابُ الْأَحْمَرُ
س. م. د.

Cat. Nov. 1945

59628

القاهرة

مطبعة الاستقامة

١٩٤٢.

ضبطه وصححه وحقق أصوله

محمد سعيد العرابي

ملتزم الطبع والنشر

المكتبة التجارية الكبرى : شارع محمد علي — مصر

لصاحبها : مصطفى محمد

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثالثة

١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير الطبعة الثانية

محمد سعيد العربي

« لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أنا . . . : ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين - حين يقع - أعنف مافي الخصومة ؛ إذ هو مقاتل روحيين على تحليل أجزائهما المتمزجة . وأكبر خصيمين في عالم النفس ، متحايان تباعضا . . . »

مصطفى صادق الرافعي

... وهذا هو الفصل الثاني من قصة الحب بين الرافعي وفلانة ،

ليست قصة الحادثة ، بل قصة القلب الذي أحب ، فزین له الحب ، فتمنى ؛ ثم كان من أمره ما كان ؛ بما فصلت مجملته في غير هذا المكان ^(١) ؛ فجاء هذا الكتاب وكتابان من قبله ومن بعده ^(٢) ، يصف فيها من حاله ومن خبره ويكشف عن ذات نفسه !

(١) حياة الرافعي ص ٧٣ - ١١٩

(٢) رسائل الأحزان ، وأوراق الورد

كانت « رسائل الأحزان » هي أول ما بين الرافعى وصاحبه
بعد القطيعة ؛ كتَبَها وأنفذها إليها بين دَفَتَي كتاب ، لتقرأه فتعلم
من حاله ومن خبره ما يريد أن تعلم ؛ ثم كتَبَ هذا الكتاب ...
تُرى ماذا كتبتُ إليه صاحبه بعد ما قرأت « رسائل الأحزان »
فأثارتُ نفسه بعد هدأتها وردَّته من الغيظ والحق إلى أن يقول :
« يا هذه لا أدري ما تقولين ؛ ولكن الحقيقة التي أعرفها أن نفس
المرأة إذا اتسختُ كان كلامها في حاجة إلى أن يُغسل بالماء
والصابون ، وهيات ... ! » ويقول : « يجب على المدارس حين
تعلِّم الفتاة كيف تتكلم أن تعلِّمها أيضاً كيف تسكت عن
بعض كلامها ! » ؟

مَنْ لى بأن أعرف ما كان وقع رسائل الأحزان في نفسها
وما ردَّتْ به ؟

لأنه يتحدث في السحاب الأحمر عن التهمة والظنون ، والكلام
الذى لا يغسله الماء والصابون ، والنجمة الهاوية ، وخداع
النظر في الحب ، وفساد الرأى في الهوى ، وطيش القلب في
الاستسلام ، ثم ... ثم يحاول أن يعتذر ... !

هنا الحلقة المفقودة في تاريخ هذا الحب ؛ فلست أدعى المعرفة ؛
ولقد كنتُ مع الرافعى مرة في مكتبه وبيننا هذا الكتاب يقرأ
لى بعض فصوله ؛ فاستمهلته عند فقرة مما يقرأ ليحبنى عن سؤال

يكشف عن شيء من خبرها ومن خبره ؛ فوضع الكتاب إلى جانبه وحدثني في طويلا ، ثم سكت ، وسبحت خواطره إلى عالم بعيد ، وراحت أصابعه تبحث بما على المكتب من أشياء ؛ ثم قال : « رأيت القلم الذي تراءى لي السحاب الأحمر في نصابه بين عيني والمصباح ؟ » ثم دس يده في درج المكتب فأخرجه ودفعه إليّ وهو يقول : « ضع النصاب بين عينيك والمصباح وانظر . ألسنت ترى سحابا يتفرق بالدم كأن قلبا جريحا ينزف ؟ ... في شعاعة هذا النور تراءت لي هذه الخواطر التي تقرأوها في السحاب الأحمر ... »

ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال ...



أحسب أن الرافي حين أنشأ السحاب الأحمر ، كان في حالة عصبية قلقه لست أعرف ما أتاها ومردّها ؛ ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خبرها في شيء من الغموض والإبهام .

لقد أنشأ الرافي رسائل الأحزان ليكون رسالته إليها يتحدث فيها عن حبه وآلامه . ولست أشك في أن صاحبته حين تأدّت إليها رسائله قد فهمت ما يعنيه وعرفت ذات صدره ؛ وأحسبها — وهي الأدبية الشاعرة — قد سرّها أن تكون هي فلكّ الوحي لما في رسائل الأحزان من كل معنى جميل . أفترأها قد بدا لها

أن تهيجه بالدلال والإغراء وقسوة العتب وتصنع الغضب لتفتته
وتزيده وحيا وشعراً وحكمة ... ؟

إن كان هذا هو جوابها على رسائل الأحزان فما أراها
قد بلغت به إلا أن هاجت كبريائه وأثارت نفسه ، فكتب
هذا الكتاب ولكن لغير ما أرادتة وما قصدت إليه ...



يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد ، حول فلسفة البغض ،
وطيش الحب ، ولؤم المرأة ... !

على أن كل ما فيه لا يشير إلا لمعنى واحد : هو أن قلبا وقع
في أسر الحب يحاول الفكك فلا يستطيعه ؛ فما يملك إلا أن يصيح
بملء فمه : إننى أبغضك أيتها ... أيتها المحبوبة !

وكما يفزع الشخص إذا حزبه أمره إلى أصدقائه يستعينهم
ويستلهمهم الرأي في بلواه ، كذلك فزع الرافعى في السحاب الأحمر
ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمره ؛ فهذا
صديقه الشيخ على صاحب « المساكين » وهذا صفيّه وصاحب
نشأته الشيخ أحمد الرافعى ، وذلك أستاذه ومثله العالى في دينه
الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وهذه أم ضلّ ولداها
الحبيبان ، وتلك زوج يفارقها زوجها الحبيب إلى السجن ؛ وهذا ،
وهذه ، وتلك ، يحادثونه جميعا حديثهم عن الحب في رأى

العين وفي رأى القلب وفي رأى العقل ، ويحدثهم حديثه ... فما تلمح من أحاديث هؤلاء جميعا إلا أن الرافعى فى جهاد عنيف بين قلبه وعقله ، يريد أن يثبت الغلبة لعقله على هواه ليخرج من أمر صاحبه برأيه وفكره وكبريائه ، ثم لا تكون الغلبة فى النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه !

على أن هذا الكتاب ليس كله خالصا لصاحبه (فلانة) وإن يكن من وحيها ؛ ذلك لأن نسقه العجيب ومحاولة الرافعى به أن ينصرف عنها ، قد نهج له فى الكتاب مسالك من القول لم تكن مما يقتضيه ما بينه وبين صاحبه .



فى الفصل الأول من السحاب الأحمر ، يتحدث المؤلف عن فتاة « عرفها قديما فى ربوة من لبنان ، ينتهى الوصف إلى جمالها ثم يقف ! » وهو يعنى صاحبه التى أملى عليه « حديث القمر » ؛ وإنك لتقرأ حديثه عنها ، ووصفه لها ، وما كان من أثرها فى نفسه ، فتسأل نفسك : أى شيء رده إلى هذه الذكري البعيدة فأيقظها فى نفسه بعد اثنتى عشرة سنة محال الزمان بها فى قلبه وأثبت ؟ فلا تلبث أن تجد الجواب فى الأسطر الأخيرة من هذا الفصل :

« إن من النساء ما يفهم ثم يعلو فى معانيه الجميلة إلى أن يمتنع ، ومن النساء ما يفهم ثم يسفل فى معانيه الخسيسة إلى أن يبتذل ... »

« إن من المرأة ما يُحبُّ إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة ما يُكرهه إلى أن يلتحق بالكفر ... »
 « من المرأة حلو لذيد يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مُرٌّ كَرِيه يُشَبَّع منه بلا أكل ... »

أتراه بهذا يوازن بين واحدة وواحدة ، ليقول لهذه : إن تلك كانت خيراً منك ؟ وهل تحسبه كان يعتقد ذلك ؟ أما أنا فأعرف أن هذا معنى لم يكن يعنيه ، ولكنها مساومة في الحب يريد بها أن يهيج غيرة صاحبتها ليردها إليه ، أو أنه أراد أن ينقذ كبريائه فيزعم لصاحبته أنه لم يكن يعنها بما كتَبَ ، لأن هنالك أخرى ...



وتقرأ « النجمة الهاوية » في الفصل الثاني فتسمعه يقول :
 « تتم آمالنا حين لا نؤمل ! » فما تشك أن هناك رسالة إليها ، رسالة يملها الحب المغبط المحقق ، يحاول فيها أن يوهما أنها ليست شيئاً في نفسه ، وأنه قد نمت آماله واستراحت نفسه فليس لها فيها أمل ولا يتعاق بها رجاء . ثم يستطرد في معاني البغض والهجر والقطيعة بأسلوبٍ قاسٍ عنيف ، ولكن قلبه العاشق المفتون يذبض في كلماته ؛ فما ينتهي الفصل حتى يستعان حُبّه من وراء كلمات البغض وهو يقول : « أشأم النساء على نفسها من

لا تُحِب ولا تُبْغِض ، وأشأَمهن على الناس من إذا عَدَّتْ مَبْغِضِيهَا
 لا تَعُدُّ إِلَّا الَّذِينَ أَحْبَبُوهَا . . . ١ » فهل ترى ترجمة هذه العبارة
 إلا أنه يقول : « إننى أحبك يا أشأَم النساء ! » ؟
 اقرأ فى آخر هذا الفصل الصاخب قوله :

يَأْمَنُ عَلَى الْحُبِّ يَنْسَانَا وَنَذَكِرُهُ لَسَوْفَ تَذَكُرُنَا يَوْمًا وَنَنْسَاكَ
 إِنَّ الظَّالِمَ الَّذِى يَجْلُوكُ يَأْقُرُّ لَهُ صَبَاحٌ مَتَى تَذَكُرُهُ أَخْفَاكَ !

ويتحدث فى الفصل الثالث عن السجين تحمله عربة السجناء
 إلى أَجَلِهِ وزوجته التى تحبه تشيعه بنظراتها الجازعة ، فتعرف
 من وصفه لساعة الفراق بين الزوجين الحبيبين أىَّ خاطرة فى
 الحب ألهمته هذا الفصل البديع ، وكأنك تسمعه يتحدث فيه عن
 نفسه مما فعل به الفراق إذ يتحدث عن هذين الزوجين اللذين
 فرق بينهما الموتُ الموقوت !

ويتحدث فى الفصاين الرابع والخامس عن تجارة الحب ، وعن
 المنافق ، فتلمح من وراء حديثه معنى لا يريد أن يفصح عنه ؛
 وإنه لسبب مما كان بينه وبين صاحبه : أفترأه يشير به إلى شئ
 من أسباب القطيعة ؟

وفي الفصل السادس يتحدث عن حب الأم في قصة والدته
ضلل ولداها الصغيران ثم اهتدت إليهما؛ فيوازن بين حُبِّ وحب،
وعاطفة وعاطفة؛ وينتهي إلى أن يقول:

« وهكذا الرجل: أغواه الشيطان في السماء بشمرة، فنسى
الله حيناً؛ ويغويه الحب في الأرض بشمرة أخرى، فينسى معها
الأم أحياناً! »



وتراه في الفصول الثلاثة الباقية كأنما يحاول أن يروض
نفسه على السلوان، ويقنعها بأن الحب ليس هو رجولة الرجل؛
وليس هو إنسانية الإنسان، وليس هو كل ما في الحياة من لذة
ومتاع — في كلام يُجْريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه: الشيخ
علي، والشيخ أحمد، والشيخ محمد عبده؛ يحاورهم ويحاورونه؛
فتستمع في هذا الحوار إلى النجوى بينه وبين نفسه، وإلى الصراع
بين عقله وهواه.

إن الرافعي بكبريائه وخلقته ودينه واعتداده بنفسه لم يُخلَقْ
للحب! ولكنه أحب؛ فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام،
وصراعا دائماً بين طبيعته التي دو بها هو، وفطرته التي هو
بها إنسان. وإنك لتلمح هذا الصراع الدائم في كل فصل من
فصول السحاب الأحمر.

وفي هذا الكتاب تقرأ رأى الرافعي في القضاء والقدر ،
وإنه ليشعرك برأيه هذا مقدار ما فعل به الحب وما قلَّ من
إرادته ؛ فتراه يؤمن بأن الإنسان في دنياه ليس له اختيارٌ فيما
يعمل ، ولكنه قضاءٌ مقدور عليه منذ الأزل لا طاقة له على الفكاك
منه . وإنه على ذلك لموفقٌ بأن لله حكمة فيما قضى وقدر وإن
دقت حكمته على الإفهام :

« ألا ياماء البحر ، ماأنت على أرض من الملح ؛ فبماذا
أصبحت زعافاً لا تحلو ولا تُساغ ولا تُشرب ؟ إنك لست على
أرض من الملح ولكنك ياماء البحر ذابت فيك الحكمة المملحة ... ! »

قلت فيما صدرتُ به كتاب « رسائل الأحران » : إنه عند
أكثر قراء العربية شيء من البيان المصنوع تكلفه كاتبه يحاول به
أن يستحدث فناً في العربية لم يوفق إلى تجويده ... لأنه بقيمة
قصة لم تُنشر معه

وأقول هنا : إن السحاب الأحمر كتاب كامل ؛ احذف منه
فصلاً أو فصلين في أوله ، وشيئاً من فضول القول في سائرهِ ،
تجد فناً في العربية لا يقدر عليه إلا الرافعي ؛ فجرّده من قصته
أو أنسبه إليها ، فإنك واجد فيه أدبا يستحق الخلود ، وبياناً

يُنْزَهِى عَلَى الْبَيَانِ ، وَشِعْراً وَحِكْماً مَازَالَ الْأَدْبَاءُ يَدُورُونَ عَلَيْهِمَا
حَتَّى وَجَدُوهُمَا فِي أَدَبِ الرَّافِعِيِّ !

. فِي رِسَائِلِ الْأَحْزَانِ أَرَادَ الرَّافِعِيُّ أَنْ تَعْرِفَ صَاحِبَتُهُ مِنْ
حَالِهِ وَمِنْ خَبَرِهِ مَا أَرَادَ ، فَأَغْرَاها بِالْتَرَفُّعِ وَالْدَّلَالِ ؛ وَفِي السَّحَابِ
الْأَحْمَرِ حَاوَلَ أَنْ يَشْعُرَها أَنَّهُ قَدْ فَرَّغَ مِنْ أَمْرِها وَفَرَّغَتْ مِنْ
أَمْرِه ، فَهَلَّها عِنْدَهُ إِلَّا الْبَغْضُ وَالْإِهْمَالُ ؛ وَمَا لَهُ عِنْدَها إِلَّا
اللَّهْفَةُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ أَيَّامِهِ . أَفَتُتْرَاهُ هُنَا قَدْ بَلَغَ مَا أَرَادَ ؟
هِيَاتِ أَنْ يَخْفِيَ الْهَوَى !

اسْتَمَعَ إِلَيْهِ يَحَاوِلُ أَنْ يَهْبِجَ فِيهَا الْغَيْرَةَ وَيُبْعِثَ اللَّهْفَةَ وَيُوَاطِئَ
الْحَنِينَ وَيُورِّثَ الْبَغْضَاءَ وَيُثِيرَ النَّدَمَ ؛ فَلَا يَكَادُ يَبْلُغُ آخِرَ الرِّسَالَةِ
حَتَّى يَنْسَى مَا قَصَدَ إِلَيْهِ لِيَدْعَ لِقَابِهِ أَنْ يَقُولَ :

وَيْلَى عَلَى مَتَدَلٍّ مَا تَنْقُضِي عَنِّي فَنُونَهُ !
كَيْفَ السَّلْوُ فِي فَوْأِ دَى لَا تَفَارِقُنِي عِيُونُهُ ؟

مُحَمَّدُ سَعِيدُ الْعَرَبِيَّةِ

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الْأُولَى

لِلْمُؤَلِّفِ

لما كتبتُ « رسائل الأحزان » في فلسفة الجمال والحب ، كنت في تدبيره والرأي فيه كمن يُورِّخُ عهداً من شبابه بعد أن رَقَّتْ سِنُهُ (١) وذهب يقينه من الدنيا ولم يبق إلا ظنُّه ، فهو يكتب والكلام يحنُّ لَدَيْهِ ، والقلم يتنُّ في يديه ، وكل وصف جاء به من الشباب قال رحمة الله عليه ... وكنت أتعلق بأطراف اللغة التي فرَّتْ من الحياة معانيها ، وذهب نورُها وظلامُها في أيامها ولياليها ، فكان قلبي هو الذي يكتبها ولكن قلبي هو الذي يُمَلِّئُهَا .

لغة الأحلام التي تعبرُ عن الحقائق على نحو ما وقعت يوماً لا على نحو ما تقع كل يوم ، فهي تترجم للحياة في زمن من العمر تاريخ هذه الحياة نفسها في زمن آخر ، وتُرجع الإنسان كله لبقية الباقية ، وتأتي في الكلام لغير جدال كما تأتي الأجوبة القاطعة على أسئلتها

وهي لغة الماضي التي تحملُ ما حملتَ عليها لأنها صافية

(١) شاخ وهرم ، ومتى بلغ الإنسان هذه السن كانت لذات الدنيا كلها ظنوناً في نفسه ، وبعد عن يقينها وحقائقها بعده عن شبابه وقواه !

كالخق ، منزّهة عن الريب كالواقع ؛ فإذا وصفت بها الخير كانت
كالمرآة المجلوة أشرق فيها وجه جميل فملاً صفاءها جمالا وفتنة ؛
وإذا صوّرت بها الشرّ كانت كالمرآة ووجهه الزنجي : يملؤها
سواداً ولكنه لا يطمس على شعاعها ، وتضيف إلى سواده
لمعان نورها مادام فيها !

كتبته بلغة الأحلام ؛ والأحلام هذه إنما هي بعضُ ما مات
منا أو ما مات لنا ؛ فإن استحال رجوعنا في هذا العمر عوداً
على الماضي فهي رجوع الماضي إلينا ؛ ومن ثمّ كان في لغتها
شيء ظاهرٌ من روعة الخلق ، وكانت لها معان كأنها راجعة من
سفر بعيد إلى شوق طال به الصبر .

✧ كتبت كتابة قال الغائلون إنى أتكلف لها خيالاً ورواية ،
وقال العاشقون إنها كلامٌ قلوبهم ، وقال الذين يفهمون الكلام :
إنه هو في كلامه ! ✧

ولقد كنتُ من نفسي يومئذ كمن لو صرّبه الحب بِقشة
لجرحه جرحاً يدمي ^(١) وكنت أكتب عن ساحرة تبسمُ حتى
لتظنّ أنها لم تُؤتَ وجهها تعبسُ به ، ثم تكون مع ذلك شرّاً
ماهى كائنة من حيث لا تظنّ أنت بها إلا الذي هو خيرٌ وأهدى !

(١) دى الجرح يدمى (كرضى يرضى) : إذا سال دمه

وكنْتُ في ذلك الكتاب شاعراً ؛ وُحِبَّ الشاعر لا يخلو
من الوزن ... ؛ وكنْتُ متفلسفا ؛ وهيهات إن أصبتَ الحب
أيها الفيلسوفُ إلا في امرأة معقَّدة يؤلفها الله تأليفاً من
العُسر بين فهمك ومعانيها ؛ فلا جرَمَ كان الكتابُ في نوع من
الحب المتألم لا يكون مثله إلا بين اثنين مَسَّحَ الله يده على وجه
أحدهما ثم مَسَّحَ يده على قلب الآخر ثم تراءى بعدُ فما لَبِثَ
أن أشرق الأثرُ الإلهيُّ على الأثر ، ووقع القضاء في الحب
على القدر !

ألا إن كل باب يُفْتَحُ ويُغْلَقُ بمفتاح واحدٍ هو يُغلقه وهو
يفتحه ، إلا بابَ القلب الإنساني ؛ فقد جعل الله له مفتاحين :
أحدهما يُغلقه ثم لا يغلقه سواه ، وهو مفتاح الذات ؛ والآخر
يفتحه ثم لا يفتحُه غيره ، وهو الألم !



كنت أستوحى « الرسائل » من تلك النفس التي طارت بي
طيرَها البطيء وقوعها ؛ فإني لا سَتَعِرُ بها فِكْراً^(١) وأشْتَعِلُ منها
خيالاً ، وكنْتُ أرى الفصول تَخْلُصُ في يدي حين أكتبها كما
تخلص سبائك الذهب بعناصرها لا بالصناعة ؛ وكان هذا القلم
كالحديد إذا أُحْمِيَ عليه : ليست يدُ لمسته من أيدي المعاني إلا

(١) يستعر : يلتهب ، كأنه كله شعلة فيكر

وضع فيها سِمَةُ النار؛ ثم جاء الكتاب وما أكاد أصدق أن الزمن
سمرَّ به، وتم قبل أن يُتِمَّ القمر دَوْرَةَ شهر واحد^(١)، فنبهني
ذلك إلى أن أستوفي الكلام في الحب استمداداً من أرواح أخرى،
فوضعتُ هذا «السحاب الأحمر»^(٢)

وقد استوحيتُه من أرواحٍ فيها الحبيبُ والبغيضُ والصديقُ
والمظلومُ والظالمُ لنفسه، ومَن عقله قلبُه، ومن حبه منفعته؛
وفيها أضعفُ ما عرفتُ من العقول وأقواها؛ فمن هذه السماء
تَوَكَّفتُ هذا السحاب^(٣)؛ وإني لأشهدُ أني في بعض فصوله
كنتُ أحامى عن الحب أن يُدْتَقَصَ^(٤)، فأدير الكلام على ذلك
فيلتوى، ثم أراه لا ينقاد ولا يُتَابَعُ إلا على خلاف ما أريد؛
فاذا أخذتُ في المذهب الذي يعنُّ لي اتفاقاً وعَرَضاً،^(٥) تحدَّرَ
الكلام تحدَّرَ الدمع من حيث لا يملك أحدٌ أن يُفِيضَه أو يكفَّه،

(١) كتبت رسائل الأحزان في نيف وعشرين يوماً، وكتب حديث القمر في أربعين، وكتب
هذا السحاب في شهرين؛ وهي الكتب الثلاثة التي جعلناها للجبال والحب، وكلها مستوحاة .
قلت : ومثلها أوراق الورد ، وقد أخرجه بعد هذا الكتاب بست سنين ،
ولكل كتاب من هذه الكتب الأربعة سبب وحادثة ؛ وقد استوفينا الحديث عن كل منها
وعن أسبابها في كتابنا « حياة الراقعي »

(٢) تعرف سبب هذه التسمية في الفصل الأول

(٣) التوكف : الاستمطار

(٤) أى يعاب ويثلب

(٥) عن يعن : إذا غرض

لأنه عند أسبابه الباطنة . وفي فصل « الشيخ على » خاصة كانت روح هذا الرجل الطبيعي كأنها هي التي تكتب ، وكان مريداً على طبعه وخلقه ^(١) فما ملكت معه محاماة ولا دفعاً . وفي فصل « الشيخ محمد عبده » كنت أشعر كأني مُرتَق في صَعْدَاءٍ مَطْلَبُهَا طويل بعيد ^(٢) ، فلا أخطو خطوة إلا مُدافعاً جاذية الأرض وشاعراً بأني أحمل نفسي حملاً ؛ وكنت كالذي يطأ على أضراس الجبل الصخري وأسنانه مُتَّسِداً حَزِيراً أن يَزِلَّ فيسقط سقوط اللقمة الممضوغة ... ولا ينفعه في الصخر وشموخه وتعاليه أنه كان في عريض السهل عداء لا يُلحق !



من الحب رحمة مُهداة ؛ فإذا كنت مع الله كانت كل أفكارك صوراً روحانية ؛ فأنت كالمَلَك : هو في الأرض ما هو في السماء . ومن الحب نَقَمَةٌ مُسَلِّطَةٌ ؛ فإذا كنت مع الشيطان كانت كل أفكارك صوراً حيوانية ، فأنت كهذا المَتَجَهِّمِ الطِيَّاش ^(٣) الذي لو نظر في كل مرآة الدنيا ما رأى في جميعها غير وجه القرد ، لأنه القرد ... !

(١) المريد هو من عتا وطني ، ولا يقال إلا في الأخلاق والطباع ، أما في غيرها فارد

(٢) الصعداء : الطريق العالية يصعد فيها ، أو الغاية البعيدة يصعد إليها

(٣) القبيح الوجه ، الخفيف العقل

والناس في هذا الحب أصناف : فواحد يجاهد زَلَّاتٍ قد وقعت ، وهو المحب الآثِم ؛ وآخر يجاهد شهواتِ تَهْتُمُ أن تقع ، وهو المحب الممتَحَن ؛ وثالث أَمِنَ هذه وهذه وإنما يجاهد خَطَرَاتِ الفكر ، وهو المحب لِیُحِبُّ أَفْقَط ؛ ورابع كالقراية والصديق عجز الناس أن يجدوا في لغاتهم لفظاً يلبس هذه العاطفة فيهم فألحقوها بأدنى الأشياء إليها في المعنى ، وهو الحب . وعلى الثالث وحده بنيتُ « رسائل الأحزان » ، وعلى بعض الرأى في الباقيات كَسَرْتُ هذا الكتاب

مَنْ لِلْحَبِّ وَمَنْ يُعِينُهُ	والحب أهْوُهُ حَزِينُهُ !
أَنَا مَا عَرَفْتُ سِوَى قَسَا	وَتَه فَقُولُوا كَيْفَ لَيْنُهُ ؟
إِنْ يُقْضَ دَيْنُ ذَوِي الْهَوَى	فَأَنَا الَّذِي بَقِيَتْ دُونُهُ
قَلْبِي هُوَ الذَّهَبُ الْكَرِيْ	مُ فَلَا يُفَارِقُهُ رَيْنُهُ
قَلْبِي هُوَ الْأَلْمَاسُ : يُعْ	رَفُ مِنْ أَشْعَتِهِ ثَمِينُهُ
قَلْبِي يُحِبُّ وَإِنَّمَا	أَخْلَاقُهُ فِيهِ وَدِينُهُ

يَا مَنْ يُحِبُّ حَبِيبَهُ	وَبِظَنِّهِ أَمْسَى يُهِنُهُ
وَتَعَفٍ مِنْهُ ظَوَاهِرُ	لَكِنَّهُ نَجِسٌ يَقِيمُهُ
كَالْقَبْرِ غَطَّتْهُ الزَّهْوُ	رُ وَتَحْتَهُ عَفْنٌ دَفِينُهُ

ماذا يكونُ هَواكَ لو كل الذي تهوى يكونُهُ ؟
 دَع في ظَنونَكَ مَوْضِعاً إن الحبيبَ له ظَنونُهُ
 وخِذِ الجميلَ لِمَن تَزِ مِن الحَسَنِ فيه بما يَزينُهُ
 إن تَنقَلِبَ إصْرَ العَفَا فِ لمن تَحِب فَمَنْ أَمِينُهُ ؟
 مالذَّةُ القلبِ المَدَّالِ هِ لا يَطولُ بِهِ حَنِينُهُ ؟
 مالذَّةُ العَقلِ المَحْ ب ولم يُجَنِّنْهُ جَنونُهُ ؟
 الحُبُ بَيجَدَة عابِد : ما أَرْضَهُ إِلَّا جَبِينُهُ
 الحُبُ أَفْق طَاهِر ما إن يُدَنِّسُهُ خَمُونُهُ
 أَفْقُ المَلائِكِ نَفْسُهُ في البَدءِ كانَ لَهُ لَعِينُهُ (١)

وَيلى على مَتَدَلِّ ما تَنقَضِ عَنِّي فَنونُهُ
 كيف السُّلُو وفي فُؤا دى لا تُفَارِقُنِي عُيونُهُ ؟

مصطفى صادق الرافعي

(١) هو إبليس لعين السماء وطريد الملائكة

كَلِمَةٌ

كانت دُرَّتَانِ متجاورتين في حِلْيَةٍ على صدر حسناء ؛ وكلتاها
 يقيمة إلا من أختها^(١) ، تَمُجُّ ذلك الشعاع النادر الذي جاءه
 الحسن من كونه ضوءاً لم يُولَدَ من شمس ولا من قمر ، ولكن
 من ظلمات البحر ؛ فتناجتا يوماً ، وكانت الجميلة قد استوفت كلَّ
 زيتنها وحملت الدرّتين على صدرها كأنهما عَيْنَا قلبها الثمين ؛
 فقالت إحداها للأخرى وهي تشير إلى هذه الفتاة : انظري
 انظري ، ما أحسنَ لؤلؤتنا ... !

صارت اللؤلؤة في هذا المنطق الشعريّ هي امرأة الأعماق
 المظلمة ، وعادت المرأة الحسناء لؤلؤة الأعماق السماوية المضيئة
 فلا شيء يريد أن يكون كما هو في نفسه ، إذ لا يزال موضعُ
 الفصل من حكمة الله خفياً ، لا يرى بل يُتَوَهَّم ، ولا يُسْتَيَقَنُ
 بل يظن ؛ وكان خفاء هذه الحكمة في سماواتها إيجاداً للخيال في
 الإنسان حتى لا يظلَّ أبداً في حيوانيته ؛ ولكن هذا الخيال
 نفسه كثيراً ما أضاف إلى الإنسان حيوانيةً أخرى

ولو كشف لك عن الحقيقة لرأيت أقبح ما في كل شيء أن
 لا يبرح أبداً محبوساً في حقيقة لا يُجاوِزها ؛ ومن ثمَّ خَفَّفَ الله

(١) أى لا يشبهها في الدر إلا أختها

عن الإنسان فأودع فيه قوة التخيل يستريح إليها من الحقائق؛
فإذا ضجر أهل الخيال من الخيال، لم يُصالحهم إلا الحب، فهو
وحده ناموس التطور للقوة المتخيلة، وإن تجد في الأشياء
العجيبة أعجب منه؛ حتى كأنه أمٌ تلد. فالمرأة هي تلد الإنسان
ولسكن حبها يلد النابغة



وليس يقع التعجب من الأمر لأنه عجيب في نفسه، بل
لأنه متصل من الإنسان بروعه^(١) أو بعقله أو بهواه أو بمطامعه
فإن دَهَشَ الروح أو تحير العقل أو اشتبه الهوى أو تمكن
المطمع من النفس، فهذه هي الألوان الأربعة التي تصور منها
الطبيعة الإنسانية كل معاني التعجب. والذي هو أعجب من جميعها
أن الطبيعة لا تحتاج إلى جميعها في تصوير شيء إلا واحداً، هو
تصوير الحب الصحيح في قالب إنسان

فهذا الحب ليس حقيقة واحدة عجيبة، بل هو أربع حقائق
داخل بعضها بعضاً فلا يتميز لونٌ منها من لونٍ منها. وما حقيقة
الحب الصحيح إلا امتزاج نفسين بكل ما فيهما من الحقائق، حتى
قال بعضهم: لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما

(١) الروح: الخاطر والقلب

أن يقول للآخر : يا أنا^(١) : ومن هذه الناحية كان البغض بين
الحبيبين — حين يقع — أعنف ما في الخصومة : إذ هو تقا تل
روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة . وأكبر خصيمين في عالم
النفس ، مُتَحَابَّانِ تَبَاعُضًا !

وللحب العجيب جنس من النساء عجيب خُلِقْنَ جواسيس
على القلوب يدخلن فيها ويخرجن منها ، وقلبا تجسست الواحدة
منهن إلا لتفضح للدينا أسرار روح عظيمة : وهذا الجنس
تَهْيِيَةُ الطَّبِيعَةِ تَهْيِيَةُ المَادَةِ السَّحَرِيَّةِ ، وتولد المرأة منه مرتين ؛
فإذا هي انحدرت إلى الدنيا طفلةً جعلت تأخذ في دمها الجذاب
من شعاع الشمس يتوهج ، ومن نور القمر يتلدى^(٢) ، وذهبت
تنمو في ظاهرها نمواً وفي باطنها نمواً غيره ، حتى إذا بلغت
مَبْلَغَهَا وانبعثت مِلءَ شبابها ، آن لها أن تولدَ الثانيةَ ، فُولِدَتْ
في قلب رجل !

والعجيب أنها في الولادة الأولى يكون أول وجودها هو
أول وجودها : أما في الثانية فذلك أول فناها : لأن المرأة متى
حلت من قلب الرجل محلاً ، جعل يُفْنِيهَا معنى في معنى حتى

(١) يريد اتحادهما في الميل والهوى والحياة والخضوع ، كأنهما تبادلا نفسيهما

فنفس كل منهما انتقلت في الآخر !

(٢) يترطب ، والتوهج : توقد النار ونحوها

تفرغ ، فلا يبقى منها إلا ذكرى زمنٍ مضى ... !
 وكل امرأة من هذا الجنس هي مُعْجِزَةٌ عقلية مادامت مخبوءة
 في الشعاع السماوى من جمالها ، ومادام هذا الشعاع يفعل فعله
 الذى عرفه الناس أوضح ما عرفوه فى أديانهم وعقائدهم ، وفيما
 أنزلوه منزلة الأديان والعقائد

وآية مصداقٍ هذا الإعجاز^(١) فى المرأة الساحرة المحبوبة ذلك
 النوع من الحب - أنه يَبْنِىنا يكون مُحِبُّها رَزِينِ الطبع وازِنِ الرأى^(٢)
 كالجبل الراسخ الوطأة ، إذا هو من سخافة رأيه فى بعض أهواء
 الحب ونزعاته كأنه جبلٌ يطير بألف جناح وقد ملأ الخوافق
 بين السماء والأرض أوهاماً سحرية !

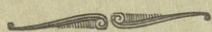
وهنا مُعْضِلة الحب التى لا حيلة فى فهمها ولا فى تقريبها إلى
 الفهم ، وهى تثبت أن العاشق يُعطى فى ناحية خياله قِبَلَ الناس
 جميعاً ، ولكنه يُنْتَمِص من ناحية عقله مع حبيبته وحدها ؛ فهما
 مَحْرُبانِ تَظَاهَرا^(٣)

(١) أى برهانه ، تقول : مصداق الامر كذا ، وآية مصداقه كذا

(٢) عاقل وقور راجح الفكر

(٣) أى تعاونا

ولا يُشْبِه تلك المعجزة إلا أن ترى إنساناً يقوم على ساحل
البحر المِلْح فيلقى فيه رِطْلاً سَكراً ، ثم يتدَوَّق البحر فإذا هو
في مذاقه وفي رأيه وفي حكمه شرابٌ سائِغ ، كأنما ألقى الرجلُ
فيه وزن كرة الأرض من هذا الطعم اللذيذ الحلو ... ومع ذلك
فهو عاقل فيما عدا ذلك !



الفصل الأول

القمر الطالع

في يدي الآن هذا القلم الذي أكتب به ، وهو سنّ قائمٌ
في نصاب ^(١) من الزجاج أحمر صافٍ يَشْفُفُ عن دَاخلِهِ ؛ فإذا
طاف به النورُ أشعَّ فيه ^(٢) وانصغ بلونه فرمى على إصبعي ظلاً
مجروحاً ^(٣) يريك الجلدَ كأنما جُرَّحَ من فوقه لامن تحته
فإذا رآوحتهُ يدي ^(٤) وقلبتهُ أنا ملي ، رأيتُ له بريقاً يستطيع
فيه كأنه شُعْلَةٌ من اللهب حُبستُها مُعْجِزَةٌ في عُودٍ من الثلج
فإذا استعرضتُهُ بين العين وبين الضوء الساطع ، رأيتُ منه
ياقوتةً حمراء قد أَفْتَرَّ فيها نَبْعٌ كالقَمَرِ الحلو يَتَمَقَّسُ على قلبي
الحزين بابتسامات تأتي إلى وفيها ألوانٌ شفافها الوردية !
فإني لَجَمَّاسٌ ذات مرة في جوف الليل أكتب على ضوء
الكهرباء ، إذ طارت فيه نظرةٌ من نظراتي ، وكان إزاء الشَّجِيلة ^(٥) :

(١) السن : الريشة ، والنصاب : اليد التي تمسكها

(٢) أظهر شعاعه فيه

(٣) استعير له الجرح لأنه أحمر يترقق كالدم

(٤) داورته وقلبت

(٥) هي فتيلة السراج المشعلة ، سمينا بها خيوط النور المنبثقة في المصباح الكهربي

وما تجرى فيه ، ترجمة لكلمة (Duill)

فَرَأَيْتُ فِي خِلَالِهِ مِنْ انْعِكَاسِ الضَّوْءِ شَمْسِيَّةً صَغِيرَةً لَمْ أَرِ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا حَسَنًا ، كَأَنَّهَا سَدِيدِيكَةٌ تَحْتَرِقُ وَتَتَنَاثَرُ ضَبَابًا مِنْ بَخَارِ الذَّهَبِ ؛ فَهَدَدْتُ النَّظَرَ فَإِذَا أَنَا بِتِلْكَ الشَّمْسِيَّةِ كَأَنَّهَا إِحْدَى عِذَارَى الْجَنَّةِ انْعَمَسَتْ فِي غَدِيرِ صَافٍ فُحْوٍ لَهَا جَمَالُهَا ، فَانْقَلَبَ مِنْ مَعْنَى الْمَاءِ إِلَى مَعَانِي الْجَمَالِ الْمُسْتَحْيِ ، فَاحْمَرَّ كَأَنَّهُ لَوْنُ خَدِّ مُورِدٍ ! وَرَاعَنِي مَا أَبْصَرْتُ ، فَاسْتَأْنَيْتُ لِحِظَةً ، ثُمَّ رَفَعْتُ طَرْفِي إِلَى مَدَارِ هَذَا الْكَوْكَبِ ، فَجُمِلَ يَرْمِي بِمِثْلِ شَقَائِقِ الْبَرَقِ ^(١) تَلْعَعُ وَاحِدَةً لَوَّاحِدَةً ، ثُمَّ انْقَلَبَ يَتَضَرَّمُ كَالْتَنُّورِ الْمُسْتَعْرِ ، ثُمَّ عَادَ لُجَّةً مِنْ « السَّحَابِ الْأَحْمَرِ » يَمُوجُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ كَالْحَبِّ الْمَتَوَهِّجِ يَمَلَأُ فَرَاغَ قَلْبٍ كَبِيرٍ ؛ فَاخْتَلَجَ الَّذِي هُوَ فِي صَدْرِي ، وَحَضَرَ قِي ^(٢) حَاضِرَةٌ مِنْ الذِّكْرِ لَمْ تَكُ تَعْرِضُ لِلْفَكْرِ حَتَّى انْفَلَقَ السَّحَابُ عَنْ وَجْهِ فَاتِنٍ كَالْقَمَرِ الطَّالِعِ ، وَكَانَ مِثْلًا فِي نَفْسِي مُذْ أَبْصَرْتُ تِلْكَ الشَّمْسِيَّةَ ، فَكَأَنَّمَا رَأَى مِنَ السَّحَابِ مِرْآةً فَانْطَعَمَ فِيهَا ؛ وَمَا تَلَبَّثْتُ إِلَّا يَسِيرًا ثُمَّ اخْتَفَى

وَعُصَّتْ فِي هَذِهِ النَّفْسِ أَفْكَرُ فِيمَا رَأَيْتُ وَأَنَا أَمْسِكُ عَلَى قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ ، وَإِذَا « السَّحَابُ الْأَحْمَرُ » يُمَطِّرُ عَلَى مَطَرَةٍ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالْكَلِمَاتِ يَتَلَاخَقُ مِنْهَا طَرَفٌ بَعْدَ طَرَفٍ ، وَتُقْبَلُ

(١) قطع البرق ، جمع شقيقة

(٢) خطرت نبالي ، والذي هو في الصدر : القلب

طائفة وراء طائفة ؛ كأن متكلم يتحدث بها في نفسى ، أو كأنه
وحيٌّ يُوحى من ملك الجمال ؛ فأسرعت أدونها وأحصيها تحت
عينى تلك الصورة الجميلة المشرقة على ، حتى امتلأ البياض سواداً ،
واستفاضت روح الخبر الأسود بالهم على صدوع القلب
وعلى شعابه (١) .

وجاءت بعد ذلك ليالٍ كان فيها السحاب يعرض لى صوراً
أعرفها ، فإذا مثَّلها فاستوحيتها الفكرة سمح على الخواطر من
روحها ، فأقبلت كالطر يُفرغ إفراغا دفعة من غير تلبث (٢)



رأيت وجه فتاة عرقها قديماً فى ربوة من (لبنان) ينتهى
الوصف إلى جمالها ثم يقف (٣) ؛ كنت أرى الشمس كأنما تجرى
فى شعرها ذهباً ، وتتوقد فى خدها ياقوتا ، وتسطع فى ثغرها
لؤلؤة ؛ وكنت أرى الورد الذى يزرعه الناس فى رياضهم ،
فإذا تأملت شفيتها رأيت ورقتين من الورد الذى يزرعه الله
فى جنته ؛ وكانت لها حيناً خفة العصفور وحيناً كبرياء الطاووس
ودائماً وداعة الحمامة المسببنة ؛ وكانت روحها عطرة تنفج تنفج

(١) طرق القلب وشقوقه

(٢) المطر متى سح تتابع حتى تنفث السحابة أو تساي

(٣) لا تظيل فى وصفها هنا فهى التى وصفناها فى حديث القمر ،

المسك إذا تشابهت الأرواحُ الغزلةُ بالحاسة الشعرية التي فيها !
 وكنت إذا رأيتها بحملة النظر من بعيد صور لها قلبي من
 الحسن والهوى ما يموت فيه مَوْنَةٌ ثم يحيا ؛ فإذا جالستها وأثبت
 النظر فيها رأيتها في التفصيل شيئاً بعد شيء بعد شيء ، كما أنظر نجما بعد
 نجم بعد نجم : كلها شعاع وكلها نور وكلها حسن !
 وما نظرتُ مرةً إلى النساءِ حولها إلا وجدتُ من الفرق
 بينها وبينهن ما يتضاعفُ من جهتها عالياً ويتضاعفُ منهن
 نازلاً نازلاً : كأنه ليس في الأمر إلا أنها أُخِذَتْ من السماء
 ووُضِعَتْ بينهن !

هي كالفتنة المحتومة تنبعث إلى آخرها ؛ فليس منها شيء إلا
 هو يُحَسِّنُ شيئاً ويُشوق إلى شيء ، وبعضها يُزِينُ بعضها



لقد تَرَخى الزمنُ بي وبها ، ذلوا عدت لأحصيتُ مائةً
 وخمسين قرأً ^(١) منذ فارقتها ؛ وما أحسب الأرض إلا انصدعت
 بيننا عن أقيانوس عظيم من الزمن تماؤه الأيام والليالي فلا
 يخاض ولا يُعْبَرُ ولا ينظر فيه أهلُ ساحل أهلٍ ساحل غيره
 وعلى أن هذا الزمن قد محا في قلبي من بعدها وأُثْبِتَ

(١) كناية عن الشهر ، ولا نقول خمسين ومائة ، وكلاهما صحيح .

قلت : كان ذلك في سنة ١٩١٢ ، وكان تأليف هذا الفصل في سنة ١٩٢٤

فلا تزال تلشق لها زفرة من صدرى كلما عرّضت ذكراها ،
 كأن القلب يسألنى بلغته : أين هي ؟

والقلب الكريم لا ينسى شيئاً أحبه ولا شيئاً ألفه ؛ إذ الحياة
 فيه إنما هي الشعور ، والشعور يتصل بالمعدوم اتصاله بالموجود
 على قياس واحد . فكأن القلب يحمل فيما يحمل من المعجزات
 بعض السر الأزلّى الذى يحيط بالأبعاد كلها إحاطة واحدة ،
 لأنها كلها كائنة فيه ؛ فليس بينك وبين أبعد مامرٍّ من حياتك
 إلا خطوة من الفكر ، هي للماضى أقصر من التفاتة العين للحاضر



ليس بجمال إلا ذلك الروح الذى يرفع النفس إلى أفق
 الحقيقة الجميلة ثم ينفخ فيها مثل القوة التى يطير بها الطير ويدعها
 بعد ذلك تترامى بين أفق إلى أفق ؛ فإمّا انتهى المحب إلى حيث
 يصير هو فى نفسه حقيقة من الحقائق ، وإمّا انكفأ من أعاليه وبه
 ما بالطيارة الهاوية : رفعت رآكبها إلى حيث ترمى به ميتاً
 أو كالمغشى عليه من مس الموت !

والذين ينكرون أن الجمال يقتل أحيانا أو يجعل الحياة
 كالقتل ، ثم يدعون مع ذلك هوّى وحباً — إنمّا هم أولئك الذين
 يعشقون بنفس العاطفة المادية الخسيسة التى يحبون بها الذهب
 والفضة وورق البنك

وليس بحب إلا ما عرفته ارتقاءً نفسياً تعلو فيه الروح بين
سماوين من البشرية فتلوح منهما كالمصباح بين مرأتين : يكون
واحداً وترى منه العين ثلاثة مصايح ، فكأن الحب هو تعدد
الروح في نفسها وفي محبوبها

ولا تُموِّد للنفس إلا بنوع من الحب مما يشتعل إلى ما يتنسم ؛
من حب نفسك في حبيب تهواه ، إلى حب دمك في قريب مُعزِّه ،
إلى حب الإنسانية في صديق تبرُّه ، إلى حب الفضيلة في إنسان
رأيتَه إنساناً فأجللته وأكبرته

فاذا أنت أصبت في الخليفة من أغفل الله قلبه ^(١) عن تلك
الأربعة ! فلا حب ولا صلة ، ولا يَأْلَف ولا يُؤْلَف — فذلك
هو الذى لا نفس له من نفوس الناس ، كأنه سُبُع من السباع
الضارية ؛ أو هو الذى كله نفس ، كأنه نبى من الأنبياء ...
تجد الأول فيمن اعتزله العالم من شرار المجرمين وأخلاق
الشياطين الإنسيَّة الذين لا يسعهم الناس بعد أن انفصلوا من
إنسانيتهم وانخطوا انحطاطاً في أشد العنف ؛ وتجد الثانى فيمن
اعتزل هو العالم من خيار الأوابين والشهداء الذين لا يسعون
الناس بعد أن اتصلوا بإنسانيتهم الكاملة فارتفعوا عن الخلق

(١) أحمل قلبه وتركه لا يثبت فيه شيء منها

ارتفاعاً في أرقّ الرحمة !

الحب بعض الإيمان ؛ وكما أن الطريق إلى الجنة من الإيمان بكل قُوى النفس ؛ فإن الطريق إلى الحب من قوة لا تنقص عن الإيمان إلا قليلاً ؛ والخطوة التي تقطعُ مسافة قصيرة إلى القلب ، تقطع مسافة طويلة إلى السماء !

وكما ينشأ الكفر أحياناً من عمل العقل الإنساني إذا هو تحكم في الدين ، يأتي البُغض من هذا العقل بعينه إذا هو تحكم في الحب (*)

وترى ما هذا الشَّبه بين المرأة وبين السماء ؟ أكانت المرأة في أصل الخلقة مادةً سماء بدأت تتخلق في الغيب خبئها الله في ضلع الرجل عقاباً لها ، ثم عاقبها الثانية فأخرجها للرجل تنظر إليه كما ينظر السجين إلى سجنه . . . ويكون الله سبحانه قد عاقبها مرتين ، لتعلم هي بطبعها كيف تتجنّى على الرجل وتعاقبه مراراً لا تُعدّ ؟

أيمكن أن يكون هذا الجمال الفتان في المرأة الجميلة خلاصة سماء من السماوات خلقت عينين وخدين وشفَتين ؛ تضحك أحياناً بالنور وتلتهم أحياناً بالبرق وتنفجر أحياناً بالرعد ؟

لقد عرفنا أن في السماء جنة وناراً ، وأقسم لو صُغرت
الجنة وجُعِلت أرضية تُلائم حياة رجل من الناس ، ثم عَجِلْتُ
له في هذه الحياة الدنيا ، لما كانت بمتاعها ولذاتها وفنون الجمال
فيها إلا المرأة التي يحبها ! ... أما الجحيم فلا أراني في حاجة
إلى برهان على أنها صُغرت وتجزأت واندفقت على الأرض
شُعلاً في أسماء من أسماء النساء ... !

لذلك أراني لا أستطيع أن أفهم المرأة الجميلة ، بل لا أدري
كيف أفهمها ؛ فمن حيثُما نظرتُ إليها لا أراها تبتدئ إلا من
فوق العقل ، فأنظر إليها ساكتاً على أنها هي لا تنظر فيّ إلا متكلمة



يا ملون السماء والوجوه الجميلة ؛ يا صورَ الرّوعة والحب ؛
يا مبدع هذه المعاني الظاهرة إبداعاً جعلها لدقّتها كأنها لم تظهر ...
يا موجد القلب كما هو لتملأه السماء إيماناً ، والجمال حباً ، والمعاني
فكراً منهما معاً ...

ويا خالق الإنسانية العالية في الانسان الكامل من إيمانه وحيه
وفكره ...

... نعرف هذه السماء بما وسّعت للإيمان ، وهذه الطبيعة
بما رَحِبَتْ للفكر ؛ فهل المرأة وحدها هي التي للحب ؟
تباركت إذ جعلت ما وراء الطبيعة فوق الفكر مهما سما ،

وجعلت الطبيعة حول الفكر مهما اتسع ، وأنزلت المرأة بين
المنزلتين مهما كانت !

إن من النساء ما يُفهم ثم يعلو في معانيه الجميلة إلى أن
يتمتع ، ومن النساء ما يُفهم ثم يَسْفُل في معانيه الخسيسة إلى
أن يُبتذل !

إن من المرأة ما يُحبُّ إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة
ما يُكره إلى أن يلتحق بالكفر !

من المرأة حُلوة لذيذ يُؤكل منه بلا شَبَع ؛ ومن المرأة مُرّة
كُريه يُشَبَع منه بلا أكل!

الفصل الثاني

النجمة الهاوية

طائفة من الخواطر في طائفة من النساء

وَتَرَقَّرَقَ السحاب فإذا هو كَنَضَحِ الدَّمِ ^(١) ، وإذا هو
يَقُورُ قَوْرُهُ ^(٢) ؛ فَبَنَانِ كَأَنَّمَا يَتَدَفَّقُ مِنْ طَعْنَةِ أَرَى دَمَهَا وَلَا أَرَى
مَوْضِعَهَا ، لِأَن هَذَا الشَّلَالَ الْأَحْمَرَ يَتَفَجَّرُ مِنْهَا

وَرَأَيْتَهَا هِيَ طَالِعَةٌ كَالشَّمْسِ حِينَ تَغْرِبُ مَجْمَرَةٌ يَتَغَالَبُ طَرْفَا
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَيْهَا ؛ فَقِيهَا أَوَاخِرُ النُّورِ وَأَوَائِلُ الظُّلُمَةِ ، وَسَوَادُهَا
يَمُشِي فِي بَيَاضِهَا ^(٣) ...

قلت يوماً في صصفة إحدى القصائد البديعة : إنها فن من
الشعر ؛ وفي إحدى الصور المحكمة : إنها فن من التصوير ؛ وفي
تلك الجميلة : إنها فن من المرأة ! أما الآن فقد عرفنا أن اصفرار
الشمس إيذانٌ بسواد نصف أرضها

ويقول العرب : امرأةٌ تَجْلُوْةٌ ؛ ويفسرون ذلك بأنك إذا رامقت

(١) خروج الدم وسيلانه

(٢) غضبه

(٣) انظر كتاب « رسائل الأحرار »

فيها الطرف ^(١) جال ؛ يَعْنُونَ أنها من جمالها ذات شعاع ،
 فيجول الطرف فيها لأجل شعاعها وبريقها ؛ أفلا يجوز لنا أن
 نزيد في هذه اللغة : وامرأة صَدِيقَة ؛ ونفسرها بأنها هي التي إذا
 اتصلت بها تركت مادة الصديق على روحك اللامع ، لأنها كهذا
 الصديق طيبت على طينتها ^(٢) ؟

لست أريد أن أصنع في هذا الفصل كتابة حتى لا أدير
 الكلام على شيء ، فقد مُسِخَتْ تلك النفس في نفسى خُلِصَتْ لى
 منها هذه الكلمة الجميلة : « تَمَّ آمالنا حين لا نؤمل » ! ولكنى
 مرسل مطرة سحابي تهطل ما هطلت ؛ فالمرأة الأولى أضاعت
 على الرجل جنته ، ومن نسلها نساء يُضَيِّعْنَ على الرجل الجنة
 وخيالها ! ... ولو استطاعت الأرض أن تفر من تحت قدمي
 مخلوق براءة منه ، لكان أول من تنحزل تحت رجله ^(٣) واحدة
 من هذا النوع !

مَلُحَ اللهُ لا يحلوا أبداً ؛ فهاذا تصنع في نفس لو سالت
 لكانت بُحَيْرَة ؟

(١) أرسلت فيها النظر

(٢) أى جالت على جبلتها وطبعها ؛ والصدا أشبه بالطينة في معدنه

(٣) أى تنقطع وتنخسف

سرورك من الصديق الطيب لا يكلفك إلا أن تستمتع به ،
وأنت لا تخسر فيه إذا زال إلا أنه زال ؛ فإذا لم يكن الطيب
في نفسه طيباً كذلك في أثره فهو الخبيث !

بعض النساء تنقص بها الحزن ، وبعضهن تغير بها الحزن ،
وبعضهن ... تتم بها حزنك !

لا يتقدد الشجر الأخضر إلا من أشد النار سعيراً ، وتتقد
المرأة الجميلة حتى من أشعة وهمها !

في قلب الرجل ألف باب ، يدخل منها كل يوم ألف
شيء ؛ ولكن حين تدخل المرأة من أحدها لا ترضى إلا أن
تغلقها كلها ... !

النساء منجم السعادة ؛ فرجل واحد لا يكاد يمد يده حتى
يضعها على الجوهرة المشرقة ؛ ومائة رجل يغربلون حصي
المرأة وتراها ليجدوا فيها شذرة تلع !

قال لي زوجٌ عن امرأته : أنا وهى ينتج منهما أنا بلا أنا ... !

لم يخلق الله أحداً مكروهاً قط ، وإنما نبغض من الناس
الصُورَ المكروهة التى يُحْدِثُ رُثْها ؛ فعملك شخصك الحقيقى !

كم من امرأة جميلة تراها أصفى من السماء ، ثم تشور يوماً فلا
تدل ثورتها على شئ إلا كما يدل المُسْتَنقَعُ على أن الوَحْلَ فى
قاعه ؛ فأغضبِ المرأةَ تعرفها !

الحبيبُ من تَلْتَمِهمه بكل حواسك ؛ فإذا رأيتَه فقد رأيتَه
وسمعتَه وذقتَه ولمستَه وشممتَه ؛ والبغض من تَقِيته من كل
حواسك ... !

فى المرأة حقيقةٌ ، ولكنها ان تعرفها إلا بفكر رجل ؛
فالكاملة من لا تسيء أحداً وإلا أساءت إلى حقيقتها !

كلُّ ما يخطرُ ببالك فقدَرُ معه ضِدُّه إذا كنتَ تفكر فى الحب
والبغض !

يجب على المدارس حين تعلّم الفتاة كيف تتكلم ، أن تعلّمها
أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها !

الخبثات للخبيثين . قيل لأرض حطّيبية^(١) : من تشتهين
أن يكون زوجك لو كنت امرأة ؟ قالت : الفأس !

تجاورت شجرة من الحسك^(٢) وشجرة من الورد ، فزّهت
الوردة زهواً عاطراً بطبيعة العطر الذي في مادتها . فقالت لها
الحسكة : ويحك ! ما هذا الزهو الذي أفسدت به محلك من
نفسى ؟ قالت الوردة في كلام هو عطر آخر : لا تتعجب نفسك
في تحقيري ؛ فلست أفهم لغة الشوك إلا إذا كان يُذبت الورد !

قد يتغيّر الرجل في نظر امرأته حتى تقول له : يا أنت
الأول ، يا أنت الثاني^(٣) ! ...
... ولكنني عرفت رجلاً قال لامرأته : يا أنت الخامسة والخمسين !

(١) أى كثيرة الحطب الخبت تربتها

(٢) الحسك : هو الشوك ، وسميت به شجرته مجازاً

(٣) يريد تغير الطباع وفنور النفس وما أشبه ذلك

قيل لحية سامة : أكان يسرك لو خلقت امرأة ؟ قالت :
فأنا امرأة ، غير أن سمي في الناب وسمها في لسانها !

ما الأم الشجرة التي لو نطقت لشتمت من يسقيها !

لا يفكر الرجل فيما لم يحدث على اعتبار أنه حادث ، إلا
في شئين : المصيبة التي يكرهها ، والمرأة التي يحبها !

قال رجل حكيم : إذا بلغك عن أخيك ماتكره فاطلب له
من عذر واحد إلى سبعين عذراً ، فإن لم تجد فقل : ولعل له عذراً
لا أعرفه ! وقالت امرأة حكيمة ... إذا بلغك عن رجل ماتكرهين
فاطلب له من ذنب واحد إلى سبعين ذنباً ، ثم قولى : ولعل له
ذنوباً لا أعرفها ... زوّجوا الحكمين أيها الناس ... !

يُخَيَّلُ إِلَى أَنْ عقل بعض النساء مثل وجوههن المزورة :
تحت ماتحته وليس عليه إلا « غبار » من العقل !

من المستحيل أن تُسَكِر النار وإن كان شررها ينطفئ

كَحَبِّبِ الكَأْسَ ، ومن المستحيل أن تَلْذَعَ الخمرُ وإن كان
حَبِّبُهَا يَمْوُجُ مَوْجَ الشررِ ؛ ولكن من الممكن أن تجد في امرأة
واحدة لَذَعَ النار وإسكار الخمر معاً ، وهى شيطانة النساء ، يجتمع
ممكنها من مستحيلين !



شرُّ النساء عندك وعندى هى التى تجعلك تنبّه إلى ما فى
النساء من الشر !



أقال بعضهم لزاهد عظيم : إني رأيتك الليلة تمشى فى الجنة ؛
فقال له الزاهد : ويحك ! أما وجد الشيطان أحداً يَسْخَرُ منه
غيرى وغيرك ؟ وقال رجل لا امرأة : إني رأيتك الليلة فى الجنة ؛
فقالت له : ويحك ! تقولها من غير أن تشكر فضلى عليك مع
أنى أدخلتك الجنة ... !



أشأمُ النساء على أنفسها من لا تُحِبُّ ولا تُبْغِضُ ، وأشأمهن
على الناس من إذا عدت مُبْغِضُها لا تعدُّ إلا الذين أحبُّوها !



يا هذه لا أدري ما تقولين ؛ ولكن الحقيقة التى أعرفها أن
نفس المرأة إذا اتسخَتْ كان كلامها فى حاجةٍ إلى أن يُغسل

بالماء والصابون ، وهَيَّهَات ١٠٠٠

يَا مَنْ عَلَى الْحُبِّ يَنْسَانَا وَتَذْكُرُهُ

لَسَوْفَ تَذْكُرْنَا يَوْمًا وَنَنْسَاكَ

إِنَّ الظَّالِمَ الَّذِي يَجْلُوكُ يَاقُمَرُ

لَهُ صَبَاحٌ مَتَى تُذَكِّرُهُ أَخْفَاكَ

الفصل الثالث

السجين

وتغيم سجاني هذه المرة وأطبقت في حواشيه سوداء على سوداء^(١) كأنه يجمع هم قلب بات الألم من عناصر حياته . رأيت في سوائه^(٢) رجلا أليس الذلة وسيم الخسف^(٣) ، قد انتصب كالجذع المشتعل وله فروع من الدخان ، وهو هذا السجين الذي أقص خبره

ألا إنما الانسان من الأقدار كالنبات بين الفأس التي تحترق له والمنجل الذي يحصد فيه ؛ وما هذه الدنيا إلا هذان ، فلا يحسب العود الطالع أنه شيء غير العود المقطوع !

كنت يوماً في محكمة كذا ، جَاءَ الجندُ بسجين قرَوِيٍّ كالمارد ، يزعمون أنه سُبُعٌ من سباع القرى وشيطان من شياطين الليل^(٤) ، وقد غلوا يديه بسلسلة من الحديد لعل فقار ظهره أصلب منها خلق في هيئة مُستَضْعِبة شديدة المراس كالجمرة المتقدة ،

(١) أى غيمة سوداء على غيمة أخرى

(٢) أى في وسطه

(٣) سامه الخسف وأسامة : أولاد الهوان والذل

(٤) أى لص فاتك ، وهى كناية

ولكن الحياة مازالت به من نكد إلى أنكد منه حتى طمرته
في رمادها لأن له عشرة هو عاثرها يوماً

وخلق في مزاجه وعصيه من المادة المشتعلة ، حتى إذا
التهب رأته منه الحياة شكلها القوى الجميل في الرجل المشبوب
يرسل فروعه النارية على ماحوله ؛ فإذا نهد رأى منه الموت
شكله الغنيف الجميل في الجرة العلية الذابلة حين تمر أنفاس
الهواء عليها

رجل طوال إذا انتصب والناس وقوف حوله رأيتهم
معه أشبه بهم قعوداً ، مما يفرعهم من طوله وامتداد قامته ؛
مجدول الذراعين مشبوح العظام^(١) قد تباعد منكباؤه وتراعى
بينهما صدر مصفح كل ثدى من ثديه يجمع قوة أسد

وهو في توثيق جسمه وتفرع بعضه من بعض كأنه شجرة
رجال ، كل فرع منها بطل منكر ؛ وهو في إحكام تركيبه
واندماج بعضه في بعض كأنه تمثال أفرغ من حديد فتوزعت
فيه الكتل هنا وهنا ، وكل ما فيه من الإجمال والتفصيل أنه
جسم آدمي يمثل للأعين ناموس « بقاء الأنسب »

وجاءوا به والناس متقصفون عليه من ازدحامهم ينثني
بعضهم على بعض لينظروا إلى الرجل الكامل ، بل الذي نقص

(١) الشبح : عرض العظام ، وهو من علامة القوة والصلابة

حين كُمل ؛ وهو مظل عليهم ... كأنه عبارة مُهمّة في صحيفة ،
وكأنهم من حوله شروح وتفسير رُقت على حاشيتها بخط
دقيق . وقف كالشيء الغامض يروعهم بغموضه أضعاف
ما يعجبهم بروعته ! وكانوا كالأشعاع : خيطاً يظهر من خيط ،
وكان كالظلمة : نسيجا من قطعة واحدة ؛ وأحسبه لو صاح بهم
صيحة البأس اسقطت قلوبهم من علانقها سقوطَ أوراق الشجر
في قاصف من الريح ، وكان ما بينهم وبينه في الروعة والقوة
كالذي تقديسه بين ألف متر انخسفت تحت الأرض وألف متر
انبثقت فوقها ؛ فالبعد بين طرفيهما مضاعفٌ كلّ منهما ؛ وما زالت
سُنّة الله أن تتضاعف الفروق دائماً بين الأشياء التي لا يمكن أن
تتفق ، حتى لا يمكن أبداً أن تتفق !

أما أنا فما يعجبني شيءٌ ما تعجبني القوة السليمة في رجل
شجاع ، والضعف السابم في امرأة جميلة ؛ وكما أنظر أكثرَ الوقت
بالنظر الساكن المفكر ، أحب أن أنظر أحيانا بمثل البرق
المتطائر من عيني أسد مفترس ، أو الازورار الزائغ في عيني
جواد جُمُوح . وخيرُ الناس في رأي من رأي من غسّله تاريخُ أهله
بضوء السماء وضوء السيوف معاً ^(١)

(١) يريد بهذا أن يكون من أجداده الأبطال والحكام وأهل العلم

وكان الرجل يظهر كأنما هو لا يُمسكه الحديد الذي يَعَضُّ على يديه ، بل ذنبه الذي يعضُّ على قلبه ؛ ولعله قَتَلَ ضعيفاً مظلوماً فتحوَّلَ ضعفُ القتيل وذاتُه ومسكنتُه إلى أرواحٍ منتقمة من كبريائه ، تدسُّ في ضميره عنصرَ الجبن البغيض إليه ، وتربط الروحَ الميَّمة إلى روحه ؛ فلا ينزع ظلمتها عن قلبه كل ما في النهار من الضوء ، ولا يجدد النورَ إلا في الإقرار والندم فيسكن إليهما .

وتبيَّنته فرأيتُه ساكناً سكونَ الاستهزاء ، كأنه على ثقة مما خفي عنه تشبه ثقته بما وَضَحَ له ؛ أو هو لتعاسيته أخْفَقَ أكثرَ مما فاز . والإنسان متى كثر إخفاقه صارت الخيبةُ في الأعمال هي الخطئة التي يبني عليها ؛ أولاً هذه ولا تلك ، ولكنها الشجاعةُ تجعل المطمئن إلى غاية الحياة لا يبالي بكل وسائل هذه الغاية المحتومة !

وقيل إنه بَعْدَ أن غمس يده في الدم طار على وجهه تَلَفُظُهُ الأرض من جهة إلى جهة حتى أسلمته يَدُ النقمة إلى يد العدل !

ترى لو سألنا الوحش حين يفترس إنساناً : ماذا وقع في نفسك منه حتى ثُرْتَ به وعدوتَ عليه ؟ أكان يقول — لو أنطقه الله — إلا أنه أبصر في هذا المخلوق وحشاً ما كراً خبيثاً إن يكن

فِي دِقَّةِ نَابِ الشَّعْبَانِ فَهُوَ فِي خَطَرٍ سَمِّهِ ؛ وَأَنَّهُ لَوْ رَأَى عَلَيْهِ سَمَّ
إِنْسَانٍ وَأَبْصَرَ لَهُ نَظْرَةَ إِنْسَانٍ وَأَحَسَّ مِنْهُ قَلْبَ إِنْسَانٍ لَلَجَأَ مِنْ
وَحْشِيَّتِهِ إِلَى الْإِنْسَانِيَةِ الَّتِي فِيهِ ، إِذِ الْإِنْسَانِيَّةُ هِيَ حَرَمُ الْأَمَنِ
الْإِلَهِيِّ الَّذِي تَوْضَعُ عِنْدَهُ كُلُّ الْأَسْلِحَةِ ، حَتَّى أَسَاحَةِ الْوَحُوشِ ،
وَإِذَا الْإِنْسَانُ هُوَ مُحْرَبُهَا الَّذِي تَضَرَّعُ عِنْدَهُ كُلُّ الْقَوَى ، حَتَّى
قَوَى الطَّبِيعَةِ

كَأَنَّمَا كَبُرَتْ الْإِنْسَانِيَّةُ حَتَّى عَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْئًا إِنْسَانِيًّا ؛
فَهَا هِيَ فِيمَنْ تَرَى مِنْ حَشَوُ جُلُودِهِمْ نَاسٌ وَحَشَوُ نَفُوسِهِمْ بَهَائِمٌ ...
إِنَّمَا الْإِنْسَانِيَّةُ هُنَاكَ ، بَعْدَ أَنْ تَخْرُجَ بِنَفْسِكَ مِنْ حُدُودِ الشَّهَوَاتِ
الْأَرْضِيَّةِ وَتَرْفَعَهَا فَوْقَ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ ؛ وَبَعْدَ أَنْ تُعَانِيَ فِي شَقِّ
طَبَقَاتِ النَّفْسِ الْحَرِيصَةِ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ مِثْلَ الَّذِي يَعْانِيهِ مِنْ
يُحْفَرُ فِي أَصْلَبِ أَحْجَارِ الْأَرْضِ إِلَى غَوْرِ بَعِيدٍ !

فَهُنَاكَ لَا تَجِدُ الْأَشْيَاءَ بِلَ مَعَانِيهَا وَأَسْرَارِهَا ، وَلَا الْخَوَاطِثَ
بِلَ أَسْبَابِهَا وَأَقْدَارِهَا ، وَلَا نِيرَانَ النَّفْسِ بِلَ أَضْوَاءِهَا وَأَنْوَارِهَا ؛
فَتَرْجِعُ مِنْ تَمِّمْ وَفِيكَ النَّامُوسُ الَّذِي يُنْبِئُ الْخُضْرَةَ مِنَ الْعُودِ
الْمَغْبَرِ^(١) وَيُخْرِجُ النَّارَ مِنَ الشَّجَرِ الْمَخْضَرِّ ، وَيَجْعَلُكَ لِبَحْرٍ هَذَا الْأَزَلِ
كَأَنَّكَ مَكَانٌ مِنَ الْبَرِّ



كان السجين في بهو المحكمة ، فصعد به الجند إلى غرفة « قاضى الإحالة » ^(١) ووقفوه ساعة على مَظَلٍّ بين يديه فناءً واسع أسفل منه . فتحوّل الناس إلى هذا الفناء وتحولت معهم ، وكان البطل يلوح كطرف المِئذنة ؛ فما هو إلا أن أدار عينيه فى الناس حتى استقرّ بهما على ناحية ، فنظرتُ حيث نظر فإذا داء قلبه وقلب كل من رأى

... ست نساء وقتى وطفلان ورضيع ؛ فأما واحدةٌ منهن فأُمّه ، وأما الثانية فزوجّه ، والباقيات أخواته ، والفتى فرع أبيه ^(٢) ثم الطفلان والرضيع أولاده ، وقد جاءوا يودّعونَه ويستودعونَه ، وحسبوا أن ليس بين رَجُلهم وبين الموت إلا هذا القاضى الذى مَثَلَ ببابه ، فطرح الموتُ ظل فكرِه على وجوههم ، وأخذ الرعب مأخذَه فيهم ؛ فما كانوا إلا كما يجتمع أهل الميت حول الميت :

رأيت أمّه المفجوعة جالسة لاتحملها رِجلاها ، وعلى صدرها ذلك الرضيع تضمه كأنه قطعة من قلبها رجعت إليه ، وتشدُّ عليه بيديها شِدَّةَ الجزع والحنان كما لو كانت تحسبه صلة

(١) هو القاضى الذى يسمع القضية فان رأى البرامة حكم بها وإلا أحال المجرم على

محكمة الجنايات لتقضى فى أمره

(٢) أخوه ، وهى كناية

بينها وبين ابنها ، تنقل هذه الشدة بعينها إليه كما تنقل السكر بآء
حركة المتحرك ، وقد انطلقت دموعها ، وفي كل نظرة إلى نكبة
وحيدها مادة جديدة للبكاء !

وهي تنحني على قلبها حتى يداني وجهها الأرض ، كأنها
شعرت به ينكسر فمالت ليلتم صدع منه على صدع ؛ ثم تعود
فتعتدل فيكاد ينشق قلبها فتضغطه بانحناء أخرى ؛ وهي في كل
ذلك مُرسلةٌ عينيها تمطر مطراً ؛ وكانت حين تنكف دمعها ^(١)
وتنحيه عن خديها ، يتسائط من فُروج أصابعها كأنه عددُ
أيام شقاتها !

وحسب الرضيع أن هذه الحركة هَدَدةٌ ^(٢) من أمه لينام ،
فنام هنيئاً على صدرها ، وأدفاؤه غليانُ هذا الصدر فضاغف لذة
أحلامه ! وإنما هو طفلٌ سماوى لا يزال مَسَّ يدِ الله على جلده
الرطب ، فلو زفرت حوله جهنمُ فأحرقته لكفنته نسمة من
تسمات الجنة ؛ وياسعادة من يستطيع بطبيعته أن ينقطع من
وسائل نفسه إلى وسائل الله ^(٣)

(١) النكف : أخذ الدمع عن الخد بالأصابع

(٢) هددت الأم ابنها : حركته لينام

(٣) والعجيب أنه لا يستطيع ذلك إلا أصغر من في الانسانية من أطفالها ، وأعظم
من فيها من أنبيائها !

وأما زوجة الرجل وهى شابةٌ جَزَلَةٌ الخلقِ ناضرة الصبا
 تركها الحزنُ كالمرأة المهملّة : تدل أنوارُ بريقها على مواضع
 الصدا منها — فكانت واقفة تحمّل على رأسها بُرْمَةً أعدت فيها
 ما تعرف أن سيدها يشتهيهِ من طعامه ، كأنها تريد أن تجعل
 من هذا الطعام الذى يحبه رسالة من الحب بين نفسها ونفسه
 ترسلها إليه فى بيته ولما استقرت عينه عليها ، أرسلت
 كلَّ عواطفها فى مجارى دمعها ، وقد أيقنت أنه قُطِعَ بها دون
 عمادها وزوجها ووالد ابنها وكنزها الذهبى الذى لا تملك غيره ؛
 فكانت تبكى لكل معنى من هذه المعانى بكاءً بعينه ، وتبكى على
 قدر وفائها الذى لا حدّ له ، وحبها الذى لا صبرَ معه ، ومصيرتها
 التى لا سبب فيها من أسباب العزاء ؛ وكل نظراتها كانت تقول
 لزوجها : لك ما أبكى (١)

وأحاط بها أخواته الأربع صفراً الوجوه ساهمات الخدود
 ذابلات الأعين ، كأنما تدأبن إلى الأرض من مشنقه ! والبدنُ
 قطعة من أمها ، وليكنها فى الحزن على أبيها أو أخيها بعدة
 أمهات ؛ فهل تُراها لا تستوفى فى بطن أمها إلا نصف حياتها
 كهيتها فى الدنيا ويبقى النصف الآخر فى أخيها ، فإن
 مرض خامرهما نصف الداء ، وإن مات وقع عليها نصف الموت ،

(١) أى أبكى لك وحدك لا لخاصة نفسى

ولا يكون حزنها عليه إلا هذّة في حياتها لا يمكن أن تبنى ؟
 أما أخو السجين فوقف ناحية عن النساء وجعل يبكي
 وَيَعْرِضُ عَيْنَيْهِ ؛ ولا أدري إن كانت الفِطْرَةُ هي التي أبعده
 عنهم حتى لا يشبههن بوجه من الشبه ولو كان دقيقاً كهذه
 الخيوط من الدمع ؛ أم هو انْتَحَى جانباً كيلا تتصل به عدوى
 الضعف ، وليستطيع أن يبكي على أعين الرجال بكاءً رجل في
 دمه شيء من القوة ؛ أم هو انتَبَذَ مكانه ليتكلم مع آلامه ؛
 فإن الآلام تتكلم ولكن يا حساسنا ؛ وكان له مع أوجاع قلبه
 حديث طويل ؟

وأما الولدان فربض أحدهما في الأرض ووقف الآخر
 لأنه أكبر منه قليلاً ، وكلاهما ضامرُ الوجه مُتَقَبِّضُ منكسرُ
 من هَوْل ما يرى ؛ وكانت عيونهما الحائرة تدل على أنهما بإزاء
 حالة غير مفهومة ، فأبوهما حتى لم يمت وعيونُهما مكتحلة بعينيه
 وليس بينهما وبينه إلا ارتفاعُ شجرة ... فلم لا يصلان إليه أو
 يصل إليهما ؟ وعلام هذه المناحة ولا ميت ؟ وفيّ هذا الجمع
 ولا معركة ؟

أخذنا يدرسان الدنيا كلها في معضلاتها الأولى من حيث
 لا يفهمان شيئاً وبدأ العدل الإنسانيُّ الرحيم يُخَشِّن صدرهما ليعلمَا
 ذات يوم معنى الظلم الذي يكون مرة باعثاً على العدل ويكون

مرة هو إياه !

ألا ويحك أيتها الإنسانية ظالمة أو مظلومة ! إن أمامك من هذين الطفلين الموتورين آلتى تصوير قد نقلتا هذه الصورة ، وستحفظانها إلى يوم ما !

صورة بشعة على تلوينها ، إذ لا سواد فيها إلا من الحظوظ ، ولا بياض إلا من الدموع ، ولا صُفرة إلا من الوجوه ، ولا حمرة إلا من هب القلب ؛ وسيمضى كل شيء لسبيله فيُنسى ولا يُنسى ؛ لأنها مادة علمية مصوّرة ، كرسَم تعليمى فى جغرافيا الجريمة !

هى اليوم صورة طفل فهى للحفظ ، وغداً صورة شاب فهى للعلم ، وبعد غد صورة رجل فهى للعمل

كان السجين كالميت : تراه تحت أعين أهله وهو فى عالم آخر ، وبين أيديهم وكأنه حسرةٌ بعد أمل ضائع ! وكان كلامهم سَمْعَ أذنيه ^(١) ولكنه من معنى ما يجب على بعد ما بينه وبين المستحيل ابتلاه الله بالجريمة ، ثم ابتلاه بالقصاص ، ثم تم عليهما بمصيبة فى مقدار عذابهما معاً ، وهى رؤية أهله جميعاً فى حالة لا يملك فيها قدرة ولا صبراً !

(١) أى يصل إلى سمعه فيبنيه

إنما يُمسك الإنسان قوتان : قدرةٌ يمضى بها فيدركُ
 فيطمئن ، أو صبرٌ يقعد به فيعجز فيطمئن ؛ ولكنه متى امتحنَ
 بشيء لا يقدر عليه ، وهو مع ذلك لا يصبر عنه ، فقد وضعه
 الله من ثَمَّة في حالة لا إنسانية ولا وحشية ولا دونهما ولا فوقهما
 إذ يسلط عليه كل القوى التي داخله تدفعه بأشد العنف إلى
 القوى المحيطة به ، ويُغري المحيطة به ترميه إلى التي في داخله ؛
 فما إن يزال مرتطمًا بين هذه وتلك ، وكأنه لشدة وقعهما يُحطم
 تحطيا بين مطرقتين !

وهذه البلية من العذاب لا تتفق إلا في أشد ما يكره الإنسان
 حين لا يجد منه مفرًا ولا يُطيق عليه مفرًا ، وفي أشد ما يجب
 حين لا يقدر إلى حد اليأس ولا يصبر إلى حد الجنون . وأحسبُ
 مافي الأرض متحرِّق أزهق روحه — إن لم يكن مجنونًا —
 إلا وهو في إحدى هاتين الحالتين ؛ فإن وجدت من يُشبهه الله
 على حالة منهما وجدته كالبقية من الحريق : ان لم تكن احترقت
 وذهبت فقد احترقت وبقيت !



أَجْرَمُ السَّاجِدِينَ فَأُخَذَ بِذَنْبِهِ ، فَمَا ذُنُوبُ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا ؟ أَهِيَ
 إحدى الحقائق العليا الغامضة التي من أجل غموضها واستبهام
 حكمتها يقول الحارون : « كلُّ شيء هو كل شيء ! » ويقول

المنكرون : « لاشيء في كل شيء ! » ويقول المؤمنون : « كل شيء فيه شيء ؟ »

أم هي الحقيقة السهلة الواضحة من كل جهاتها وإن أصبح الناس لا يفهمونها إذ لا تحتاج إلى فهم وإنما هم موكلون بما خفي ودق ، كدأب هؤلاء العلماء والفلاسفة الذين يقطعون العمر في دقيقي المباحث وعويص التراكيب ، ثم لا يفتنون من نتائجها إلا إلى النواميس المكشوفة انكشاف النور لكل ذي عين تبصر !
أهي الحقيقة السهلة التي تجزأت من أجلها آية الله ، فيقول المنكرون : « لا علم ! » ويقول الحائرُونَ : « لا علم لنا ! » ويقول المؤمنون : « لا علم لنا إلا ما علمتْنَا ^(١) ! »

ألا أيها القلب الإنساني المجهز ؛ إن أيامك كلها مُضَيٌّ في سبيل الموت الأول كما هي مُضَيٌّ في سبيل الحياة الأخرى ؛ فأنت تسير في طريقين معاً ، وهذه هي معجزتك التي لا تفهم ^(٢) !

ونحن من ظلام الدنيا ومن بحشنا عن الحكمة الإلهية الصريحة بوسائلنا الإنسانية العاجزة ، كالذي ينبغي أن تطلع عليه الشمس

(١) في القرآن الكريم عن لسان الملائكة يخاطبون الله عز وجل : « قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا » وهو قول الملائكة ، فكيف بالناس ؟

(٢) للحياة الآخرة واجباتها وأعمالها ، ول هذه الحياة الدنيا واجباتها وأعمالها ؛ وقلنا أشبهت واحدة واحدة ، والإنسان يعمل لما معا ويريدهما معا !

في ليله ويبقى له مع ذلك ظلام الليل ! يريد مستحيين لاستحيلا
واحداً ، وهذا هو عقلنا الذي لا يُعقل !

لو أراد الله بك خيراً أيها القلب المسكين لما جعل شقاءك
يُرَبِّي فيك تربية كما تُرَبِّي أنت في الإنسان وكما يُرَبِّي الإنسان في
الحياة . فالحب والرحمة والشفقة والصدقة وكل المعاني التي هي
روابط الإنسانية في اشتباكها ، هذه كلها هي وسائل مَسَرَّتْكَ
في حالة ، وهي بأعيانها أسباب عذابك في حالة أخرى !

جذورُ استَسَرَّ بها الغيب ^(١) وفي أيدينا فروعها وأوراقها
وثمراتها : تلك هي شجرة الحياة ، فلما حلوها ومرها وما يَفِيءُ
من ظلها وما يَنْحَسِرُ ، وَشَدَّبَ ^(٢) منها فتنمو وتزيد ، وَغَيَّرَ
من أشكلها ونلوى أو نكسر من فروعها ماشئنا ، ونترك من
ثمرها ما ينضج إلى أن ينضج أو نتناوله فجاء لا يُساغ ولا يُطعم ؛
أما أن نجعل مُرَّها حلواً ونرسل المادة الحلوة بأيدينا في جذور
الفروع المرة التي لا تُؤثِقُ ثمرها إلا عِللاً ومصائب ونكبات
وموتاً — فهذا مالا سبيل إليه ولا يُغْنِي فيه غناء ولا تبلغ منه
حيلة ، إلا إذا استطعنا أن نطفئ الفرع الأحمر من النار فيتحول في

(١) خفيت فيه

(٢) تشذيب الشجر : تقطيع فروعها لينمو

أيدينا إلى شيء آخر غير الفرع الأسود من الفهم !
 تأتي النعمة فتُدنى الأقدارُ من يدك فرعَ الثمر الحلو وأنت
 لا ترى جذره ولا تملكه ، ثم تتحول فإذا يدك على فرع الثمر
 المرّ وأنت كذلك لا ترى ولا تملك ؛ ألا فاعلم أن الإيمان
 هو الشقة بأن الفرعين كليهما يصلانك بالله ؛ فالحلو فرعُ عبادة
 بالحمد والشكر ، وهو الأحلى عندك حين تذوقه بالحس ؛ والمرّ
 فرعُ عبادة بالصبر والرضا ، وهو الأحلى حين تذوقه بالروح !
 القلب الإنساني ميدانٌ تقتتل فيه القوى الأرضية والسموية ،
 فلا بد في النصر والخذلان جميعاً من الدم يذهب كله أو بعضه ؛
 والجراح تبرأ أو لا تبرأ ؛ والآلام تُنسى أو لا تُنسى ...
 لا بدّ : لا بدّ : لا بدّ !



وجاءت حافلة السجن فركبها السجين ومضت تجرها البغال
 طائفة منقادّة كما تنقاد إذا هي جرت مركبة ملك ؛ وذهبت وما
 تحفلُ بشيء من الدنيا وسياستها وآدابها وأحكامها متحفلة بهذا
 السوط الدقيق المسطّ على ظهورها ... أما أهلُ الرجل قهالكوا
 وراء العربة ؛ فالشاب يحطّ في عذوه خطفاً مُسكراً ، كأن
 قربه منها بُوصل بعض أنفاس الحرية إلى أخيه ؛ والنسوة يهتلين
 في جريهن ، وكلما أبعدت الحافلة علا صراخهن ليملغ السجين

منهن شيء ما ؛ أما الطفلان وجدتهما فوققوا من الضعف كأنما
وقفت قلوبهم ، ولكن نظرات الجدة ارتمت إلى العربة ، فلما
غابت عنها ارتمت إلى السماء !

وأما الرضيع ، هذا اليتيم في حياة أبيه ، هذا المسكين الذي
ابتدأ تاريخه بجرمة لا يد له فيها ، هذا الضعيف لا يزال جلده
أرق دياجة من ورق الزهر ، ومع ذلك تدق فيه منذ الآن
مسامير الفقر واليتم والضياع — أما الرضيع اليتيم المسكين الضعيف
فكان وحده بين هذه المصائب الماحقة دليلا على الأمل الإنساني
في رحمة الله ، إذ فتح عينيه للنور وابتسم !



نَزَتْ كِيدِي ^(١) لما رأيتُ الحبَّ الهالكَ يَسْتَنْفِضُ امرأةَ
السجين ويسوقها جاحمةً في عِنان الغيظ تَتَرَاخَى على وجهها .

كانت المرأة غريقة في يأسها ، وكان شاطئ الأمل يفرُّ أمامَ
عينها فراراً لأن بينها وبينه موجة دمعها

وقد صَدَعَ الحبُّ في قلبها صَدْعاً لِيُغْرِزَ فيه الشوكَةَ الْمُسْتَحِدَّةَ
من ألم الفراق لمن تحبه ؛ تلك الشوكَةُ التي ما نفذت قلباً فاستقرت
فيه إلا جعلت الحياة كلها معاني شائكة حتى تُخْطَمَ أو تُسْتَنْزَعُ

(١) اضطربت في مكانها من الاشفاق ونحوه

امرأة والهة ، فيها نفسها المعذبة ، وفي نفسها رُجلها المعذب ،
وبين هذين طفلها اليتيم الذى يقتضيها أن تظل حانيةً عليه حنوَّ
أبوين ؛ فهي تجمع على قلبها عذابَ ثلاثة قلوب ، وتُلم بنفسها
الواحدة ألم الرثاء لزوجها الذى نزلت به العقوبة فى جسمه
وروحه ، وألم الإشفاق على مجدها الذى نُصب على أعين
الشامتين فى موضع الذلة ، وألم الرحمة لطفلها الذى بلغ سن
الهم وهو لا يزال فى الشدى ^(١) ، وألم اللوعة لحياتها التى لم تعد
الأيام تتاجها بغير لغة الدمع ، وألم الآسى على شبابه الذى
تساقطت آماله كما تحط الشجرة الخضراء أوراقها لتجف !

ألا ياماء البحر ، ما أنت على أرض من الملح ؛ فبماذا
أصبحت زُعافاً ^(٢) لا تحلو ولا تساغ ولا تشرب ؛ إنك لست
على أرض من الملح ، ولكنك ياماء البحر ذابت فيك الحكمة
الملحة !



ما الفراق إلا أن تشعر الأرواحُ المفارقةُ أحبتها بمس
الفناء لأن أرواحاً أخرى فارقتها ؛ ففى الموت يُمس وجودك

(١) أى الرضاع ، وتقول : مات فى الثدي ، إذا مات رضيعاً

(٢) الزعاق : الماء المر لا يطاق شربه ، وتأنيبه المرارة من شدة الملوحة

ليستحطم ، وفي الفراق يُمس ليلتوى ؛ وكأن الذى يقبض
الروح فى كفه حين موتها ، هو الذى يلبسها عند الفراق
بأطراف أصابعه !

ولأنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه ، فعند
الفراق تُنتزع قطعة من وجودنا فترجع باكين ونجلس فى
كل مكان محزونين كأن فى القلوب معنى من المُنَاحَة على معنى
من الموت !

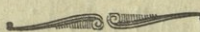
وكل ما فيه الحب فهو وحده الحياة ولو كان صغيراً لاخطئ
له ، ولو كان خسيساً لاقيمة له ؛ كأن الحبيب يتخذ فى وجود
صورة معنوية من القلب ؛ والقلب على صغره يخرج منه ك
الدم ويعود إليه كل الدم

فى الحب يتعلم القلب كيف يتألم بالمعاني التى يُجَرِّد
من أشخاصها المحبوبة وكانت كامنَةً فيهم ، وبالفراق يتعلم
القلب كيف يتوجع بالمعاني التى يجردُها هو من نفسه وكان
كامنة فيه .

فترى العمر يتسلل يوماً فيوماً ولا نشعر به ، ولكن
طارقنا من نحبهم نبّه القلبُ فينا بغتَةً معنى الزمن الراحل ؛ فـ
من الفراق على نفوسنا انفجارٌ كتطايير عدة سنين من الحياة
وترى العمر يمتلئ شيئاً فشيئاً ولا تُحس الزيادة كيف تـ

فإذا فارقنا من نحبهم نبه القلب فينا معنى الفراغ ؛ فكان من
الفراق على أكبادنا ظمأ كظم السقاء الذي فرغ ماؤه بخف
وكان الفراق جفاء

ألا ياطر الحب ، إن لك إذا طرت جناحين ؛ فما أقرب
من هو على جناح الفراق ممن هو على جناح الهجر .



الفصل الرابع

الرَّيْطَةُ^(١)

وَاطَّلَعَ فِي سَحَابِي هَذَا الشَّيْطَانُ الَّذِي تَتَلَا عَلَى وَجْهِهِ
مَسْحَةُ مَلَكٍ^(٢) فَهُوَ أَخْبَثُ الشَّيَاطِينِ لِأَنَّهُ يَسُوقُ إِلَى الْهَلَاكِ
فِي نَزْهَةٍ عَلَى شَاطِئِ نَهْرِ الْحَيَاةِ

هِيَ فُلَانَةٌ ؛ كَانَتْ امْرَأَةً فَرَنْسِيَّةً رَيْطَةً لِرَجُلٍ عَرَفْتُهُ قَدِيمًا^(*)
لَأَعْرِفَهَا مِنْهُ ، فَأَكْتُبَ عَنْهَا رَأْيَ الْعَيْنِ وَأَكُونَ أَفْهَمَ بِهَا وَأَدْنَى
إِلَى حَقِيقَتِهَا ؛ كَمَا يَرِيدُ عَالَمُ الطَّبِيعَةِ أَنْ يَكْتُبَ عَنْ بَرَكَانٍ يَتَأَجَّجُ
فَهُوَ يَدْلَفُ إِلَيْهِ^(٣) يَتَا عَلَى أَرْضٍ كَأَنَّ تَرَابَهَا حَرِيقٌ يَنْتَفِسُ
آخِرَ أَنْفَاسِهِ !

مَاسَاحَ رَجُلٍ فِي الْعُمُرَانِ وَلَا ضَرْبَ فِي تَجْهَلٍ مِنَ الْأَرْضِ

(١) هِيَ الْمَرْأَةُ الْبَغِي تَرْبِطُ بِأَجْرٍ أَوْ بِعَقْدٍ مَدَنِيٍّ ... فِي بَيْتِ رَجُلٍ ، فَتَنْزِلُ مَنْزِلَةَ
الزَّوْجَةِ عَلَى أَنَّهَا مَدْبِرَةٌ بَيْتِهِ ، وَتَكُونُ سَاقِطَةً الْمَعْنَى شَرِيفَةً الْأَسْمِ « Maitresse »
وَهَذَا الْجِنْسُ مِنَ النِّسَاءِ طَاعُونَ الزَّوْاجِ فِي هَذَا الْعَصْرِ

(٢) كُنَايَةٌ عَنْ رَوْعَةِ الْجَمَالِ

(٥) قُلْتُ : هُوَ الدُّكْتُورُ حَسِينُ الْهُوَارِيِّ (أَخْبَرَنِي الرَّافِعِيُّ) وَكَانَ فِي صَدْرِ
شَبَابِهِ - كَأَكْثَرِ وَارِدَاتِ أَوْرُبَا - زَيْفًا فِي الدِّينِ وَزَيْفًا فِي الْخَلْقِ وَزَيْفًا فِي الرُّجُولَةِ ؛ عَلَى
أَنَّهُ الْيَوْمَ مِنْ أَكْثَرِ الْمُسْلِمِينَ حِمِيَةً لِدِينِهِ وَحِفَظًا عَلَى تَرَاثِ قَوْمِهِ ، وَلَهُ مَقَالَاتٌ فِي الرَّدِّ عَلَى
بَعْضِ جِهَالِ الْمُسْتَشْرِقِينَ تَشْفَعُ لَهُ يَوْمَ الدِّينِ !

(٣) يَمْشِي فِي بَطْنِهِ فَوْقَ الدِّيْبِ

ولا ضل في تيهه منها ولا كشف للناس غمضا من غموضها (١)
ولا تطوح في بحر من بحارها — إلا وأنت واجد من مثل
ذلك معاني في نفوس النساء؛ كأن هذه المرأة تمثال مصغر لحلق
بمعانيه في مقابلة الأرض بمعانيها؛ فهي في روح الرجل إماما الخصب
أو الجذب، وهي له في الحياة إما المِلح أو العذب، وهي منه
العامرُ والخرابُ ولكن في القلب!

كان صاحبنا قتي تلغ عليه غرة الشباب، وقد رق حتى
كاد يخالط حدّ الانوثة، ولان حتى قارب أن يفوت معنى
الرجولة، وظرف حتى أوشك أن يكون إنساناً تنفتح في روحه
معاني الزهر؛ ولكنك إذا كنت رجلاً صحيحاً أمرته على
عينيك كما تُمرُّ كتاباً لا تريد أن تقرأه!

فقد تمدن في أوربا وليث عن قومه ما شاء الله (٢)، ثم
رجع إليهم كأن أمه لم تلده، وكان أباه جدّه الأعلى... فبينه
وبين أبيه هذا بضعة أجداد منهم المسيو أو المستر أو السنيور
أو (الهر...) وأصبح يُحس أن كل شيء في هذا الاجتماع
الشرقي مساط على نفسه الرقيقة النحيلة بالغلظة والجفاء والعنت

(١) الغمض: المكان المجهول من الأرض

(٢) أي غاب عنهم، تقول لبث عن أمه كذا ثم أنام

والأذى ، كأنه (رحمه الله ...) ابن الضباب ، فلما برز إلى
هذه الشمس وضحاً في أشعتها الحامية جعل يذوب ويتبخّر ... !
وكان من هؤلاء الفتيان الذين إذا تعلموا في أوربا نفّوا
جهلهم بالعلم ، ثم نفّوا عليهم بجهل آخر ... ثم جاءونا كحرقى
النقى : ما ولا ... فليس منهم إلا التكذيب والإنكار والشك ؛
وتراهم أظرف وأجمل وأزهى من فراشة الربيع ، لا يريدون
الحياة إلا أزهاراً ؛ ولا يطيقونها إلا ربيعاً ؛ وعلى أزهارهم
وربيعهم فليس لنا منهم إلا نقَطٌ من الألوان وأصوات من
الطنين ... وأجسامٌ ليس فيها رجالها !



سألت هذا الفتى مرة : أنت مصرى ؟

قال : ووطنى صميم !

قلت : أفترى أنك تصلح فى علمك وتهذيبك أن تكون

مثالاً يتأسى بك نَشء بلادك ؟

قال : لى لأرجو ذلك .

قلت : وأنت من القائلين بتحرير المرأة الشرقية ومساواتها

بالرجل فى الحرية المطلقة وبَعثها من هذه القبور التى

تسمى المنازل ؟

قال : ذلك مذهبي .

قلت : فكيف ترى إذا اقتدى بك المصريون فأصهروا إلى
الأوربيين وخلطوا الشمل بالشمّل ؟
قال : لعل ذلك خير الطبّ لببلادنا ، فلا مَعْدِلَ عنه في
رأى ؛ إذ يأتها بالدم الجديد ، ويُدمج في طباعها النظام والدقة
وينبئ البيوت من داخلها .

قلت : أحسنتَ بارك الله عليك ؛ فكيف ترى إذا سألناك
التسوية وقلنا لك : دع أختك تَصُبْ إلى رجل أوربي وتزوج
منه إجارة ... وتأت به إلى مصر كما أتيت أنت بصاحبة بيتك !
ثم لتفعل كل امرأة مصرية فعلها ، فيكون لكم أوربيات ويقوم
عليهن أوربيون ... ؟
قال : أعوذ بالله !

قلت : فَعَلَّ الله بك وفعل ، أفبيلغ من غفلتك أن لا تعرف
لعنة الله إلا إذا رأيتها ملء مملكة ، ولا تعرف حق وطنك فيك
إلا حين تراه غريباً منقطعاً لاحق له في واحد من أهله ، ولا تدرك
واجب التضحية بلذاتك وشهوات نفسك إلا بعد أن ترى الوطن
من اضطراب الموت في مثل حال الذبيحة تدحض برجلها تحت
سكين الذابح ؟

قال : فما أنا وأمثالي إلا شذوذ من القاعدة التي يجب أن
تبقى أبداً قاعدة ...

قلتُ : فعليكم غضبُ القاعدة ومقتُها وسخطُها : والله لأن
تفجع البلاد فيكم جميعاً وتستركم بالقبور رمة بعد رمة ، خيرٌ من
أن تمقلد منكم بليّة الحياة في اختلاط الأنساب وارتداد الأسماء
العربية عن دينها ^(١) وكساد النساء الشرقيات وتختث الرجال
الشرقيين وتدس هذه العروق الفاحشة اللئيمة في ذرية الوطن !

قال : فكم من امرأة وطنية هي حمل على ظهر زوجها !

قلت : وكَم من امرأة إفريقية هي كَيَّة على قفا صاحبها ^(٢) ...

قال : فماذا تصنع ونساؤنا جاهلات لاصبر عليهن ؟

قلت : أفترهب روحك إذا مرضت أم تطب لمريضك في
أناة وصبر ؟ وهل تفر من وطنك إذا ابتلاك بتضحية أم تثبت
وتتجلد ؟ ثم ماذا أفدنا من علومكم إذا لم يحمل كلُّ عالم منكم جاهلة
منهن فيعلمها ويثقفها ويخلصها إخلاص الذهب الصافي ويربح
ثواب الوطن فيها ؟ وإذا كنتم تمولون نساء بلادكم لأنهن جاهلات
فدثني أفلا يزيدهن ذلك جهلاً وضياًعاً ، ويضاعف مصيبة البلاد
فيهن وفيكم ، ويكون تركهن الذي قد يُستصلح ، سبباً لمساوياه
من الفساد الذي لاصلاح له ؟

(١) يسمون أولادهم أسماء ينسكروا الدين والوطن معا

(٢) هذه كناية عن المرأة يسكت الناس عنها أمام زوجها ، فإذا ولي عنهم قالوا في

ظهره ما قالوا و... وكروا قفاه ١

وهل ترون المرأة الوطنية منكم إلا كالزهرة : نضرتُها في غصونها وأوراقها ، فإذا طرحتها غصونها عمل مَنبِئُها الاجتماعي فيها — وهو التراب — حين تتصل به ، عكس ما كان يعمل حين لم يكن يصل إليها إلا من فروعها وأوراقها غذاءً يحمل روح الماء وروح الشمس ؟

أما والله إنكم فِتَّةٌ لا تُعد إلا في مصائب وطنها ، وإنكم لكالأجنبي ، مادام أحدكم لا يصلُ أُمومة أولاده بتاريخ أمه ؛ وإنكم لكالغاصب ، مادمتُم تغصبون حق نساء الوطن في رجال الوطن ؛ وإنكم لكالعدو ، مادام كل واحد منكم حرباً على بيت ... ألا فدعونا من الجاهلين ، فقد يكون من بعض عذرهم الجهل ؛ ومن المتكسِّصين ، فمن عذرهم الحاجة ؛ ومن المفسدين ، فمن عذرهم سوء التربية ؛ ومن الساقطين ، فعذرهم ضعف النفس ؛ ومن الخاملين ، فعذرهم التَّرك والإهمال ؛ ثم اعطفوا على هؤلاء مائة واو أخرى ، فكلها مُسَوَّعةٌ أعذارها المحمولة على تحملها ، وكلها أقربُ إلى الدَّهْماءِ منها إلى المتعلمين ، وإلى أخلاط الناس منها إلى الخاصة ، وإلى السفلة منها إلى العلية ... ولكن ما عذرکم أنتم عن شهوات أنفسكم وإيثاركم هذه الشهوات واستهتاركم في هذه الآثرة ؛ يعجزُ أحدكم أن يكسر جماع نفسه فيجنى على نفس من نساء وطنه ، هي التي زهد فيها واستبدل منها ؛ وعلى نفوس

(٥ - السحاب الأحمر)

من أبناء وطنه ، هم الذين سُمِعَتْ قُبُورُهُمْ من ذريته ويأتى بهم للبلاد
أجساماً غابت قلوبها ، ونفوساً بردت دماؤها ؛ يَسْنِزُهُمُ الْعِرْقُ
الْأَجْنَبِي من أمهاتهم اللاتى وَلَدَتْهُمْ إِذَا حَمَى دُمُ الْبِلَادِ لِبَعْضِ
أَغْرَاضِهَا ؛ وَيَكُونُونَ فِي أَمْرَاضِهَا مِنْ أَسْبَابِ مَوْتِهَا ، وَفِي صِحَّتِهَا
مِنْ أَسْبَابِ أَمْرَاضِهَا !

مَا لَكُمْ تُنْزِلُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْزَلَةَ الْبَيْتِ مِنَ أَهْلِهِ : لَيْسَ
لَهُ إِلَّا حَظُّوْظُهُ وَشَهْوَاتُهُ ؛ مُسَوِّغًا كُلَّ مَا يَقْتَرِحُهُ عَلَيْهِمْ ، لِأَنَّهُ هُوَ
كَانَ اقْتَرَا حَقَّهُمْ عَلَى اللَّهِ ؛ مَحْمُولًا عَلَى قُلُوبِهِمْ ، لِأَنَّهُ بَعْضُ قُلُوبِهِمْ ؛
يُفْسِدُ الْمَتَاعَ ، وَيَحْطُمُ الْآلِيَةَ ، وَتَنْزُو بِهِ النِّعْمَةُ نَزْوَتِهَا فَتَجْعَلُ
نِصْفَ عَقْلِهِ جُنُونًا ، وَنِصْفَ أَدَبِهِ حَقًّا ، وَنِصْفَ الْمُنْفَعَةِ بِهِ ضَرَرًا ،
وَنِصْفَ ظَرْفِهِ عَتَمًا ، وَنِصْفَ لَيْنِهِ مَشَقَّةً ؛ وَيَكُونُ خَيْرُهُ نِصْفَ
الْخَيْرِ ، أَمَا شَرُّهُ فَشَرُّ اثْنَيْنِ ؛ فَهَلَّا كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ بِلَادِكُمْ كَالْأَب
مِنْ أَوْلَادِهِ : يَرَى حَقَّ ضَعْفِهِمْ أَكْبَرَ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي لِقُوَّتِهِ ،
وَوَاجِبَ مَرَضِهِمْ فَوْقَ الْوَاجِبِ لَصِحَّتِهِ ؛ فَهُوَ يَبْذُلُ سَعَةَ نَفْسِهِ
فِي ضَيْقِ أَنْفُسِهِمْ ، وَيَحْمِلُهُمْ صَغَارًا لِيَجْعَلَهُمْ كِبَارًا ، وَيَصْبِرُ عَلَيْهِمْ
حَتَّى لِيَجْعَلَهُمْ عَقْلَاءَ ، وَيَرَى عَمْرَهُ كَأَنَّهُ مِنْ بَعْضِ أَرْزَاقِهِمْ وَهُوَ
لَا يَسْتَخْلِفُ مِنَ الْعَمْرِ شَيْئًا ، وَحَوَاسَّهُ كَأَنَّهُا مِنْ بَعْضِ خِدْمَتِهِمْ
وَمَا لَهُ غَيْرُ حَوَاسِهِ ، وَيَرَاهُمْ كَأَنَّمَا جَاءُوا إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ بَعْدَ
أَنْ اشْتَرَوْهُ مِنَ اللَّهِ ، وَبَاعَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ بِتِلْكَ النِّقْطَةِ الشَّابِكَةِ

فيهم من دمه ؟

ألا ليتكم جئتم للبلاد من أوروبا بمحاريث ، بدلا من هذه
المواريث ؛ وجئتم بالسجاد ، بدلا من هذا الوساد ^(١) ؛ وبالبهايم
للسواني ، لا بالحلائل والغواني ^(٢) ؛ وببيضائع الحوانيت ، لا ببيضائع
أنطوانيت ... وليتكم إذ كنتم رجالنا لم تغلبكم نساؤهم ، وإذ كنتم
سيوفنا لم تأسركم دماؤهم ؛ وباليتم لم تنعموا وتأنشوا ، فكانت
البلاد تجدد منكم أهل البأس ؛ ولم تعملوا وتتخنشوا ، فكانت
الأرض على الأقل تعرف منكم أهل الفأس ... !

* * *

ذلك هو الرجل ؛ أما صاحبة فامرأة فرنسية ، جميلة الوجه
في طلعة الصبح ، شابة الجسم شباب الضحى ، مُسَلَّهَةٌ الأنوثة
كشعاع الظهيرة ، رقيقة الطبع رقة الأصيل ، زاهية المنظر في
مثل شفق المغرب من تألقها ؛ ثم هي تنتهي من كل ذلك إلى
تجبر أشد ظلمة من سواد الليل ... ومن أين اعتبرت ألفتها رذيلة
مهذبة يترقق فيها ماء العلم ويجول في حسننها شعاع الفلسفة ،
كانها عين فاتنة تدور فيها دمة دلال !

ولم أكد أراها حتى أخذني جمالها ؛ فإن لها عيني رُكبتا

(١) الوساد : كناية عن الزوجة نفسها ، والمواريث : كناية عنهن أيضا

(٢) الحلائل : الزوجات ؛ والسواني : جمع سانية ، وهي السواقي تدور فيها البهايم

تركيبا يحجر المصائب على القلب ، تلقيان أشعة ضاحكة أو عابسة
يُخْلَقُ منها للقلوب حوادث وتواريخ ؛ وترمي بنظرات تُبرئُ
الصدور أو تُتمرّضها ؛ وتبسم بوجهها كلّ نوعاً من الابتسام يكاد
يسيل من كل ناحية في وجهها قُبَلات ؛ أما افترار شفقتها فهو
جمال على حدّة ، يشبه نقل معاني الخمر من فم إلى فم ...

امرأة ساحرة لا أدري إن كانت بُنِيَتْ على السحر أو على
الحب ، ولا إن كان هذا الحب قد خُلِقَ لعنةً عليها أم هي خلقت
لعنة عليه ؛ والحب دائماً بركة امرأة ولعنة امرأة ! والتي تزرعه
في كل مكان هي التي لا تحصد منه شيئاً ، فإن نالها شيء منه كان
تعباً عليها رَوْحاً لسواها .

وأشدُّ مافي هذه المرأة الجميلة من الفتنة ، اجتماع شهواتها في
صوتها النديّ المستطرب المتجّزّن^(١) الذي لا يخلو أبداً من حرفٍ
تسمع فيه همس قُبلة من قُبَلاتها !

بيد أني مع كل ذلك استعصمتُ بفلسفتي وحكمتي ، فلم أرها
إلا في مثل حرية التفاحة : إذا أفرط عليها النَّضْجُ فابيضت
واحمرت وفاحت ولمعت وإنَّ العفن لباد من تحتها يُحذّر منها
وينذر ؛ وفي مثل فروة الدبّ : استرسلت ولانت في نعومتها
ولكن لا منفعة منها إلا بقتل لايسها وإزهاق الحيوان كله في

(١) فيه نبرات العارب ونبرات الحزن

سبيل الجمال الظاهر من جلده .

ونظرتُ إليها نظرة تخطّت بها الشبابَ وأيامه ، فإذا هي
بأثسُهُ أَمَاقُ الدهرُ حَسَنَهَا ^(١) وكان ذهباً على جسمها وفضة ،
وإذا هي عجوزٌ هالكة قد انحنت تحت لعنات ماضيها وتركها
دنياها كالسجن المتهدم ؛ لا يُذكر مع انتقاضه إلا باصومه
ومجرمه وعقابهم وآثامهم ، وتَشقى بمعانيه بعد الخراب حتى
حجارتُه وحتى ترابه ! ...

وأبصرت في هذه الحسناء اللعوب التي تَسْتَوِقِدُها الضحكةُ
بعد الضحكة ، تلك الهامدة المريضة التي تُطْفِئُها الحسرةُ بعد
الحسرة ؛ وسقطت الشجرة الخضراء النامية فإذا في مكانها جذع
خشبيٌّ ملقٍ زَهْدَ فيه نورُ السماء وطين الأرض معاً !

وتمثلت لي هذه الممتكِنة على طرازها وأرائكها تتبرّجُ في
سُنْدُسِها وحريرها ، فرأيتها ممدودة في حفرتها مُسَجَّاةً بكفانها
قد هِيلَ عليها ترابُها ولم يرحمها راحمٌ ولا النسيانُ يستر
رذائلها عند من عرفوها ، وقد اجتمع عليها بعد عشاقها
من دود الناس ... عشاقٌ آخرون من دود الأرض ؛ ويفنى
جسمها حين يفنى ويبقى ضميرها الروحيُّ إلى الأبد ضميرَ مومس !

(١) أفاء ، وأفقرها منه ، كالاملاق من المال

فلما وضعت أمرها على ما حِيلَ إلى من عاقبتها ، إذا هي
تفور كما يفور النبع القديرُ بالحُمأة التي فيه ^(١) ، وإذا هي كالخشبة
المتقدة في حريقها : من فوقها طُلِّلَ من النار ومن تحتها طُلِّلَ ^(٢)
وإذا جمالها قد استحال في عيني وانفصل منها فأظهرها وظهر
معها في بريق الزجاجة من الخمر بجانب السكبر المتحطم تتساقط
نفسه مرضاً وسكرًا ، فكل ما كان فيها ^(٣) جمالا فهو فيه
أقبح القبح !

ورثت لها أشدَّ رثاء وأبلغه في الرحمة والرقعة ، حتى عادت
نظراتها تقطر على نفسها دموعاً سخينة كدموع الذل ! وبأحرّة
قلبي من الإشفاق عليها وأنا أرى في احمرار جمرتها سوادَ خمها ،
وفي أسباب سرورها أسبابَ همٍّ ، وبالهفي عليها إذ أرى هذه
الجميلة التي لم تنظر أكثرَ ما نظرتُ إلا إلى خطيئة ، ترفع نظرها
أحياناً إلى السماء بقوة في داخلها ، كأنها تقول لمن يفهم عنها :
إن هنا القدرَ وهناك المقدّر ! وبأبوسها حين لم تعدْ تظهر في
روحي إلا كما يتجأيلُ ظلُّ القمر في المساء : أنظر فيه الصورة

(١) الحُمأة : طين أسود متين ، والأخلاق السافلة هي حمأة الطينة الانسانية

(٢) قطع كقطع السحاب

(٣) أى الزجاجة

من غير معنى والضوء من غير قَبَس ، وأرى فيه الخيال وليس فيه القمر !

وَأَلَمْتُ بِمَا فِي نَفْسِي ، وَكَانَتْ تَقْرَأُ فِي وَجْهِ قِرَاءَةً ؛
فَإِنَّهُ لَيْسَ ذُو عَيْنَيْنِ يَنْكَشِفُ لِعَيْنَيْهِ سِرَّ الْعَاطِفَةِ الَّذِي يَتَرَقَّرُ
فِي الدَّمِ إِلَّا مَنْ خَالَطَ الْقُلُوبَ وَغَلَبَ عَلَيْهَا بِخَيْرٍ مَا فِي الْخَيْرِ أَوْ
شَرٍّ مَا فِي الشَّرِّ ، فَهُوَ يَتَدَسَّسُ إِلَيْهَا مَعَ مَلَائِكَتِهَا أَوْ مَعَ شَيَاطِينِهَا ؛
وَأِنَّمَا خُلِقَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ وَأَمْثَالُهَا فِي هَذَا الْجَمَالِ وَهَذَا الظَّرْفِ
وَهَذَا الْفَسَادِ ، لِنَسْتَطِيعَ أَنْ تَمَزَجَ الشَّيْطَانُ بِقَلْبٍ مِنْ تَغْتَرِهِ ^(١)
مَزْجَ الْمَادَّةِ وَالْمَادَّةِ بِوَسْطَةِ بَيْنَهُمَا مِنْ قُوَّةٍ ثَالِثَةٍ مَتَهِمَّةٍ لَهَا
مَعًا ، فَهِيَ بِجَوْهَرِهَا مَسَاطَةُ عَلَى الْقَلْبِ غَالِبَةٌ عَلَى أَمْرِهِ كَتَسْلِيطِ
السُّرُورِ وَالْكَآبَةِ وَغَالِبَتُهُمَا طَبَعًا بِمَا فُطِرَ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ .

وَقَلْبًا لَصِقَ الشَّيْطَانُ بِقَلْبٍ مَا لَمْ تَكُنْ فِي هَذَا الْقَلْبِ مَادَّةٌ
مِنَ اللَّذَّةِ أَوْ الْكَآبَةِ ، فَكَلَّتَاهُمَا كِيمِيَاءُ الْخَطِيئَةِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالشُّكِّ ؛
وَلَرُبَّ عَابِدٍ زَاهِدٍ طَاحَتْ بِهِ كَأَبْتُهُ فَقَذَفَتْهُ إِلَى النَّارِ كَمَا تَقْذِفُ
بِالْفَاجِرِ لَذَاتِهِ ، فَيَلْتَقِيَانِ مِنْهَا فِي غَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ ^(٢) وَإِنْ كَانَا فِي
الْعَمَلِ عَلَى طَرِيقَيْنِ مُتَدَايِرَيْنِ ^(٣) . وَمَا أَشْبَهَ إِسْرَافَ اللَّذَّةِ أَنْ

(١) تطلب غرته وغفلته لتغلبه على فضيله وعفته

(٢) الغمرة : موضع أكثر النار

(٣) أى مختلفين متناقضين

يكون الرجاء اليأس ؛ فالْمُسْتَهْتَر بهذه اللذة يَغْلُو في استمتاعه
غُلُوً من ظلم نفسه لا يتحرج ولا يتورع^(١). وما أشبه إعنات السكابة^(٢)
أن يكون اليأس الراجي ؛ فالْمُسْتَهْتَر بالسكابة يحفو عما عداها جفاء
من ظلم نفسه لا يتسّمح ولا يترخص^(٣). والنفس الغالية التي
جاوزت قدرها ، كالنفس الجافية التي انحطت عن قدرها : كتأهما
على طرف يمين الشرّ وشماله



ونظرت إلى تلك المرأة نظرة حَزَتْ في قلبي ، لأنها لا تسألني
المدح وكذلك لا تريد مني الذم ؛ وبعد أن رضيت أن تسمع لي
كأنها تقرأ كلامي في كتاب ، ووافقتني على أن تعتبرني مخاطباً
فكرها دون شخصها ، ومُحاوراً فلسفتها دون تاريخها ، قالت :
أحسبك لست كغيرك من الناس
قلت : ولا أنا كالملائكة .

قالت : فتعرف الخطيئة الإنسانية وتقدرها قدرها ؟
قلت : وأعوذ بالله منها وأتأماها !

(١) لا يتمتع من حرج أو ورع ، ولا يرعى قانونا ولا ديناً

(٢) إرهابها وشدتها على النفس

(٣) لا يتساهل فيها لا بد منه لنفسه ، وفي الحديث الشريف : « إن الله يحب آت

توق رخصه كاتوق عزائم » : أى المباح والمفروض معا

قالت : وتعرف ضعف الطبيعة ؟

قلت : ومعاندتها وصلابتها أيضاً

قالت : فكيف ترانى : ألسْتُ نصف المسئلة السماوية على الأرض ؟ وهل أنا إلا معنى متجسّم من معانى القدر ؟ وهل خرجتُ من سلاتى إلا كما خرجت الخمرة من عناقيدها ؟ وهل خلقتُ جميلةً غالية كالدينار إلا لتُشترى بى بعض أوقات السعادة ؟ قلت : أما المسئلة السماوية فإن كنتِ نصفها فقد كان الشيطان نصفها كذلك ؛ وأما القدر المتجسّم فلعل الحريق فى بيتٍ مَنْ نُكِبَ به أَجملُ وأخف احتمالاً ، وهو مع ألوانه الفنية ... حريق ، ولا يسمى أبداً إلا حريقاً ؛ وأما الخمر فهل هى إلا عُفونةٌ أُسْكَرتُ لأنها عفونة ؛ وأما الدينار الذى تُشترى به أوقات السعادة فهو نفسه الذى يُغْرِى للصوص ويؤجدهم ؛ وإذا كانت هذه السعادة — كما تصفيتها — فى نشوة الخمر ، فهل تُشترى الخمرُ إلا وفيها سُكرها ومَرَضُها وجُنونها ؟ قالت : فخذنى لِمَ كان الحب إذن ؟ وهل خُلق إلا للاستمتاع به من حيث يَتَّفِقُ وعلى أحسن ما يتفق ؟

قلت : إنما خُلق الحبُّ قوّةً ليقيدَ بقيوده كسائر القوى الطبيعية ؛ فأنتِ تصدعين عنه كل قيوده وتخذينه تجارة فى النفوس ، فلا تَرُدِّين يدَ لأمس ، ولا تمتنعين على دعوى فيها ثمنها

.... وبذلك تجرين مجرى القوة المدمرة ؛ ومن ههنا كان لك في الاجتماع الإنساني شأنٌ ليس كشأن المرأة ، بل كشأن المادة ؛ وكان بعض الآداب والقوانين ينزل منك منزلة المطافئ المعدة للحرائق ، وبعضها بمنزلة السجون المرصدة للجرائم ، وبعضها بمنزلة الاحتقار المهين للتاريخ السيئ ؛ وما ظلمك الاجتماع في شيء ، لأنك أنت في نفسك ظلم له ، وإن الدواء الذي يُبرئ من المرض لا يُعد مرضاً للمرض ، وأهونُ بذلك إذا أُعد مادام يُبرئ من العلة ، فإنَّ ذرَّةَ المفاسد قبل جلب المنافع ، وذرَّةُ المفسدة هو في نفسه منفعة !

قالت : فكأنك تذهب إلى القول بأن مثلي مثَّلُ العقرب والحية وغيرهما بما لدغ أو نهش أو سمَّ ، وأنَّ دأبِي في الاجتماع كدأبها ، فليس لها إلا القتلُ حيث وُجدت ؛ ومثَّلُ الأوبئة والحُميات وما قتل وما أُعدى ، فليس إلا مُدافئُها أو الفرارُ منها فراراً بالحياة لا بشيء دونها ؛ وكأنني في رأيك لست مخلوقة كالمرأة ، بل كحيوان للأذى والمقت والخوف ؟

قلت : بل مخلوقة مثل كلِّ امرأة كانت وكلِّ امرأة تكون أو هي كائنة ؛ ولكن فيك من الزيادة عليها زيادة ماء السيل على ماء النهر ، وزيادة الحِدَّة على الطبع الرزين ، وزيادة الطيش على العقل ؛ فإذا طغى النهر فآفَسَدَ وخرَّبَ ، وفارت النفس

خُفِّمْتُ واعتدت ، وطاش العقل فزلّ وأخطأ — نهض ذلك
عندكِ عذراً في وجوب التخريب والاعتداء والخطأ وتسويغها ،
ووجب من ثمّ أن تعتدل هذه الصفاتُ الجائرة على قلوب
الناس وأن يطمئنوا إليها ويرضوها مُذْعِنِينَ ، فلا يقيموا على
النهر العاقى جبّالاً من السدود ، ولا يجعلوا للنفس الطائشة سجيناً
من الحدود ، ولا يقولوا لمن يحنّ إليها عليهم : إن كان عندك الفرار
فعدنا القيود ... ؟

قالت : كلا ، ما تبلغ بي الغفلة هذا المبلغ ، ولقد درست
وبحثت ، وفي هذا الرأس ما في رأس رجل عالم فلا تظن غيره ؛
ولكني إن أجن لا أجن إلا على نفسي ، وهي لي وحدي وأنا
حرة كيف أتولاه ، أفأنت رادّي إلى العبودية ؟

قلت : أنت حرة ماشئت وما وسعتك الأرض إذا كنتِ
لنفسك ، وإذا كنتِ لا تتصلين بأحد من الناس اتصال العلة
المهلكة أو المعجزة أو المذهلة ، أو اتصال الرذيلة السامة
بالدم النقي !

قالت : فإني لا أتصل بأحد ، ولكنهم يُغرمون بي ويتنافسون
عليّ فأجد في تنافسهم لذة من أمتع لذاتي .

قلت : وكذلك نردّم الحفرة إذا اعترضت طريق السابلة
وقاية لمن عساه يغفل فيعثر بها ؛ فإن بلغت أن تكون هاوية

طبيعية لا حيلة فيها ومردت بها طبيعتها المنخفضة ، مميّزناها
بالعلامات وضبطناها بالحدود وسميناها بالأسماء وجعلناها آية
التحذير من الهلاك ، حتى لا يزلّ أحد فيتردى فيها ؛ وإذا كان
من لذتك أن تشهدى اقتتالهم عليك ، فهذا حسبك في أن من
تعاستهم أن يقتتلوا ، وكنت ولا جرم في لغة الاجتماع من
بعض معاني الشقاء والتعاسة !

... ثم إن في تلك اللذة منك دليلا حيوانيا على أن في
طبعك من إناث البهائم الشاردة التي تقف ليتناحر عليها ذكورها
وقوف المملكة المباحة تنتظر المنتصر ؛ فتقتل بإباحتها كل النفوس
التي زهقت حولها ، ولو هي لم تسكن كذلك لم يكن شيء من
ذلك ؛ فكنت ولا جرم في لغة الاجتماع من بعض معاني البهيمة !
... ثم إن هذا وذلك فيك نذير بانقلاب الإنسانية ونزولها
دون حدها ، وتراجعها في سبيل الجاهلية الأولى ، واتصالها من
كل ذلك بوحشيتها الغابرة كأن لم يكن علم ولادين ولا تهذيب ؛
فكنت ولا جرم في لغة الاجتماع من بعض معاني الرذيلة
والسقوط !

قالت : هم لا يتناحرون على أنيابهم ولا مخالبهم ولا قرونها ،
وإنما يفعلون ذلك بأموالهم .

قلت : فلا جرم كنت بهذا في لغة الاجتماع معنى من معاني

السَّفَهَ والفقر والخراب !

قالت : ولكن كم من رجل أحبنى فرأى في آية الإبداع الإلهي ، فكان لا ينالني إلا كما ينال المؤمنُ لذة قلبه .

قلت : فهذا أبدع الأصنامَ وسلَّطها على الهوى ، ثم سلَّطها بالهوى على كهنتِها وعابديها فما يرون الحجر المعبود حجراً إلا لأن عليه بناءَ ملكوت السموات ... ولا البقرة المؤهلة بقرةً إلا لأنها تجر محراث الوجود ... ولا الحشرة المقدسة حشرةً تدب ديببها البطيء إلا لأنها تحمل الخليقة ... لا جرم كنتِ بذلك في لغة الاجتماع معنى من معاني الضلالة !

قالت : أتحسب أنك أعميتني في مأخذ الحجج واستنباط البراهين ؟

قلت : فماذا ؟

قالت : إني أعدُّ الزواج أسراً واستعباداً ، وقد بلغت من العلم مبلغاً لأرى فيه أن تكون حريقى محدودة بسلطة رجل بين كلمتي لا ونعم ؛ فأثرت أن أتخلص من الحب بالوقوع فيه لأعرفه ، وعرفته لا تقيمه على نفسي ، واتقيته لا يتلى به ولاُصرفه في منافعي ؛ فليس لي في الاجتماع زوج ولكن لي الحب ، وليس لي فيه أهل ولكن لي الجمال .

قلت : أفلا يتسلَّط على حريقك الدينارُ والدرهم ... وإذا

أَنْتِ بَقِيَتْ لِلْجَمَالِ فَهَلِ الْجَمَالُ سَيَبْقَى لَكَ ؟ وَإِذَا كَانَتْ لَكَ مُدَّةٌ فِي
الْحُبِّ فَهَلِ هُوَ خَالِدٌ عَلَيْكَ ؟ ... أَلَا تَرَيْنِ أَنَّكَ تَزْرَعِينَ فِي أَيَّامِ
الْحُبِّ بَذُورَ أَيَّامِ الْحُسْرَةِ ، وَأَنَّكَ مَتَى كَبُرَتْ عَنْ سَنِّ الْمَرْأَةِ ... (١)
فَسَتَسْتَهِينِ لَا مَحَالَةَ إِلَى أَمَدٍ مِنَ الْعَمْرِ يَخْتِمُ عَلَيْكَ فِي مُظْلِمَةٍ كَالْقَبْرِ
لَا نَهَارَ فِيهِ وَلَا لَيْلَ ؟ وَهَلِ أَنْتِ مِنَ الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ إِلَّا مَقَامَ
الصَّبِيِّ مِنْ أَهْلِهِ ، إِذْ لَا مَذْهَبَ لَكَ مِنْ دُونِهِ وَلَا غَنَاءَ فِي نَفْسِكَ
إِلَّا بِهِ ؟ أَفَتَرَيْنِ لِلصَّبِيِّ أَنْ يَتَفَلَّتَ مِنْ نِظَامِ أَهْلِهِ وَيَتَحَلَّلَ مِنْ آدَابِهِمْ
ثُمَّ لَا تَكُونُ وَسِيَّتُهُ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَنْقَلِبَ لَصًّا بَيْتُهُ يَبُوتُ
النَّاسَ جَمِيعًا ، فَلَيْسَ لَهُ فِي الْاجْتِمَاعِ مَالٌ وَلَكِنْ لَهُ السَّرِقَةُ
وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ أَهْلٌ وَلَكِنْ لَهُ الْحِيلَةُ ... بِذَلِكَ وَلَا جَرَمَ كُنْتُ فِي
لُغَةِ هَذَا الْاجْتِمَاعِ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي السُّخْرِيَّةِ وَالْمَقْتِ !

قَالَتْ : فَأَنَا فِي الْاجْتِمَاعِ تَعَاسَةً ، وَبَهِيمَةً ، وَرَذِيلَةً ، وَفَقْرٌ ،
وَضَلَالَةٌ ، وَسُّخْرِيَّةٌ ؟ وَلَكِنْ أَلَسْتُ تَرَى هَذِهِ الصِّفَاتَ بَعْضَهَا
فِي كُلِّ النَّاسِ عَلَى بَعْضِ التَّفَاوُتِ فِي مَقَادِيرِهَا وَالتَّنَوُّعِ فِي
أَشْكَالِهَا وَالْإِخْتِلَافِ فِي أَسْبَابِهَا ؟ وَهَلِ الرَّجُلُ الْفَاجِرُ إِلَّا
كَالْمَرْأَةِ الْفَاجِرَةِ ؟

قُلْتُ : لَقَدْ فَجَّرَ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ لَا تَحْصِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ ، فَهَلِ

(١) سَنُّ الْمَرْأَةِ : كُنَايَةٌ عَنْ زَمَنِ الْجَمَالِ ، إِذَا دَوَّ الْعَهْدُ الَّذِي تَتَخَذُ لَهُ الْمَرْأَةُ حَتَّى

لَا غَنَى لِحِيلَةٍ عَنْهَا !

علمت أن فاجراً منهم حمل تسعة أشهر ووضع ... ؟ ألا ترين
أن الطبيعة جعلت لكلّ حكماً وهيأت لكل موضعاً ؟ وهل سواء
في طبيعة الألم وخطره وعاقبته على الحياة أن يكون الدمل على
ظاهر الجلد حيث يتلذّع على نفسه ويرى ويحدث ، وأن
يكون في باطن الجوف حيث يخشى منه على غيره أكثر مما
يُخاف على موضعه ؟

قالت : فكأن الرجل عندك أظهر جُوراً ... من المرأة ؟
قلت : بل هو هي في اللعنة والسقوط ، والنعل أخـت النعل ...
واثنتاهما على طِراقٍ واحد ^(١) ، ولكنه إن يكن أعقل من
المرأة بفكره فهي أعقل منه بحواسها ؛ وإن يكن أقدر في قوته فهي أقدر
في عواطفها ؛ وإن يكن في البليّة عود الشّباب ^(٢) ... فهي
بعد الحريق كله ! ولذا كان من الطبيعي أن تحاط المرأة في الاعتبار
بالمعانى الاجتماعية الكبرى ؛ إذ كانت هي الغرض الذي تمسّله
تلك القسوى الرامية ^(٣) ؛ فهي في معنى الكمال الأصل ، لأنها
الأمومة ؛ وهي في العقّة الأصل ، لأنها الزوجية ؛ وهي في الحياة
الأصل ، لأنها الغرض ؛ وكذلك هي الأصل في المعركة الجنسية ،

(١) أي قطع واحد ، بقطع جلد إحداهما على قدر الأخرى

(٢) عود الكبريت ، وهو قدحة من الحريق

(٣) أي ترميه وتستهدفه وتسدد إليه

لأنها المقاومة والمدافعة للرجل؛ والأصل في الفضيلة الإنسانية، لأنها
المتشأ والمرتب للطفل؛ والأصل في الشرف الاجتماعي، لأنها
المثال الأدبي للجميع... ومن ثمَّ كان سقوطها سقوطاً لهذه
المعاني كلها، فهو تهديم الأساس لا الحائط، وفساد الجذع لا الفرع،
وعلة نفس الاجتماع لا علة جسمه

هيات هيات، فلن تشعر المرأة الساقطة إلا شعوراً من
فقدت نفسها التي كانت نفسها وبُذلت أخرى لا تلائمها؛ فهي
أبداء هائمة وراء نفسها الأولى تبحث عنها ولا تدسها؛ لأن
ذلك الأصل الطبيعي لا يزال يُتاجيها في قلبها بلغة الأمومة والزوجية
والحياء والفضيلة؛ وما نفسها الشريفة إلا جواب هذه اللغة
وهي ليست فيها، فكأنها تحمل على حياتها أربع جرائم في
جريمة؛ هي أشقى النساء، ترى في ذات عقلها البرهان العقلي على
أنها امرأة ساقطة!

فَتَغْرُغَتْ عيناها بندى رقيق من الدمع وقالت: لما كنتُ
فتاة...

فقطعتُ عليها الكلام وقالت: في تلك الفتاة كل البراهين
فسليها، إنها هي نفسك الهاربة منك!
فوجَّعتْ هُسيَّهَ هذه الكلمة ثم انهملت عيناها انهماكاً،

وجاءها الدمع الطاهر يجرى من أقصى الطفولة ؛ فخالطني بنها
وحزنُها كأن دموعها تسقط على مواقع من نفسي !
فقلت : أتأذنين في كلمة ؟

قالت : بل أسألك أن تتكلم ، فإن مدامعى هذه عرضت
لى كالطيرة السانحة فى حَمِيم القَيْظ من صميم الصيف على أرض
مُغْبَرَّة مَشْعِرَّة تشورُ سُخْطاً على كل قدم تَطَوُّها ؛ وإن فسكى
ليكنى الساعة بلسانك كما يدوى الناقوس بصوته العالى الرنان
بعد أن كان هذا الناقوس محتثقاً فى بما يُطيف به من الضغط ،
فكان لا يدقُ إلا دقاتٍ مُصَمَّتة لا رنين فيها كأنه ناقوس
من الخشب !

آه ! لقد كنتُ كالغدير الصافى : لا يعرف ماؤه إلا وجهَ
السماء وضوء القمرين وأخيلة النجوم وظلال الشجر والنبات ؛
فأصبحتُ كالماء الذى كثرتْ واردته من البهائم فهى تختبطه
بأرجلها وتضيف إلى وحوله وحولها ، ولا تستعذبه إلا أن
تغشى أعلاه بطبقة من أسفله ،^(١) وكلما تراءت صورها فى كدورة
الماء حسبت ذلك عشقاً من الماء لصورها البهيمية ، ولا تعلم أنه
يلعنُها بإظهار بهيميتها لأعينها لو أنها تعقل أو تعى !
أيحسبون أن قلب المرأة حين يُشترى بالمال يكون أظهر

(١) كذلك تفعل البهائم فى الماء الصافى إذا وردته ، فتخبطه بأرجلها

من خرفة قَدْرَة تتناولها يد أقدر منها ؛ أو أئمن من فُتاتٍ
مائدة يُترك لحیوان أعجم ؟ ... ألا إن قلب المرأة لا يباع أبداً
ولئما هي حين تبعهم تبعهم مَعْدَتها باسم القلب ... إنك إن
لم تأخذ القلب هبةً ممن تحبها فما أنت من حبها في (خُذْ) ولكن
في (هَاتِ) وأخواتها ...

يحسب الناس أنه لا تفرط امرأة في الحب ما تفرط المرأة
الساقطة ؛ وما علموا أنها لا تجد الرجل فتجد الحب ! إنما الرجال
في عين هذه المرأة رجالٌ مَصْنُوعُونَ ، فهي معهم امرأة مصنوعة
يملك كل رجل إغْضابها لأن صناعتها إرضاء كل رجل ؛ ولعل
هذا من رحمة الله بها ؛ فإن أكبر شقاءها أن تجمع الأقدار بينها
وبين رجل تحبه وتستهم به ؛ إذ تَأْلَمُ لذلك الألمَ خاصاً فيه تهكم
الرزيلة والفضيلة معاً . إن هذا الرجل هو البَطْلُ الفَذْلُ الذي يكون
في قدرته أن يرجع لها ذلك العالم الذي أطرحها ونبذها ، فهو
عندها يَغْمُرُ الناسَ أجمعين^(١) ؛ ولكنها قلماً وجدته إلا لتعرف
به حقيقة عارها . وإذا فُذِّرَ للأعمى أن يُبصر ساعة واحدة ثم
يرتد إلى ظلامه ، فما أَبْصَرَ ولكن تضاعف له العمى !

المرأة الساقطة يائسة من البُعُولَة^(٢) ، وذلك عقاب حياتها ؛

(١) يكون فوفهم ويغطيهم في نظرها واعتبارها

(٢) الزواج

ثم هي لا تندفع إلا في الطريق التي تكرهها ، وذلك عقاب
نفسها ؛ فالله أرحم من أن يزيد لها بلاء الحب الذي هو عقاب
شرفها وفضيلتها ؛ فإن ابتليت به قليلا ما يتفق ذلك ، حتى إن
الساقطة العاشقة عشقا صحيحا وتبقى ساقطة أندرو وجودا من البغي
التائبة توبة صحيحة وتبقى بغيًا .



يا عجباً لضمير المرأة ! يضل في ليل دامس من ذنوبها ثم
تلع له دَمعة طاهرة في عينيها فتكون كنجمة القطب : يعرف
بها كيف يتجه وكيف يهتدى وكيف كان ضلاله . وكأن الله
ما سلط الدموع على النساء وجعلها طبيعية فيهن إلا لتكون هذه
الدموع ذريعة من ذرائع الحياة الإنسانية تحفظ الرقة في مثال
الرقة ، كما جعل البحار في الأرض وسيلة من وسائل الحياة
عليها ^(١) تحفظ الروح والنشاط لها

ثم قلت : كانت المرأة نصف الإنسانية فصارت ربعها
قالت : وكيف ؟

قلت : ألا ترى أنها انقسمت في هذه المدينة إلى قسمين متناقضين :
الزوجة وال...

(١) لولا الماء المالح في هذه البحار على الأرض لتعفن جودها

قالت : حسبك ، خذ في غير هذا فقد أبشمتك ذات نفسي
وما ينفعك ولا ينفعني أن تمتص السور الذي أقمته حول حقيقتي ؛
فإن كل قُوى الكون عاجزة عن إرجاع ورقة واحدة انتشرت
من زهرتها !

ثم وثبت إلى البَيانة^(١) فصعدت عليها بلحن من ألحانها
كان صرخة من ضميرها صاعدة إلى عرش الله في صوت
الإنسانية الباكي !

ثم ابتسمت وسلمت ، فانصرفت وكأنى ما تكلمت
ولا تكلمت ، وبقيت الأقدار مكانها فما تأخرت ولا تقدمت



ليس على الهاوية أرض تغطيها فهل تغطيها الفلاسفة ؟
وقد خسف بها قلبها في الأرض^(٢) ، فهل نسويها الحجب

والمعاذير ؟

ولو كانت الحصباء فيها بين لؤلؤة وزمردة وياقوتة ،

(١) هي (البیان) وقد استعمل بعضهم في ترجمة هذه الكلمة : المزهرة (بكسر الميم)
وإنما هو العود ؛ واستعمل بعضهم (المضارب) ، وإنما هو ما يضرب به : كضرب
العود ، وجعلها بعضهم البيان (بكسر الباء) ، وليس فيها تماسك . والبیانة في رأينا
أخفها وأصحها وأفصحها

(٢) خسف المكان : أى ذهب في الأرض

فهل من يدق عنقه في الهاوية لموت على أرض من الجوهر ؟
الهاوية في الطبيعة ، والساقطة في الإنسانية : كلتاها أرض
كالمرأة وامرأة كالأرض !

وكذلك يُخلق الطيب والخبيث « ليميز الله الخبيث من
الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض » !

الفصل الخامس

المنافق

وهذا فلانُ المنافق ، لا يرى في الحب أكثر من باء تنافق
للحاء فهي تنزل عن تقديمها وتأخر للتأخر ^(١) كما ينحط الرجل
العاشق عن رُتبته ويقدم على نفسه المرأة وعنده أن هذا برهان
طبيعي على أن الحب من غير نفاق هو حب من غير حب ؛
فالنفاق هو الأصل وحسبك به !

أعرف هذا الرجل كالحائط المبهّم ^(٢) : من أين جثته استغلق
عليك ورأيتَه ردّما واحداً فلا مَنفذ لك فيه إلا أن تكون قبلة
آدمية في القوة والشر ؛ لأنه رجل المادة لا غيرها ؛ وهو كالمرأة
الغادرة : حبّها الرجل كلمة على طَرَف لسانها ، ولسانها عملٌ في
طريق منفعتها ؛ وهو كاللص : حُبّه المال حاسة في يده ، ويده
على ما يملك الناس !

لَوْنه في الحوادث ألوان ، ودينه في المنافع أديان ، ونفسه
من الناس حشرة في إنسان ؛ وإذا عرفته نظرت إليه كما ينظر
المهموم لما جرّ عليه الهم ، وإذا جهلته كان كالدواء المغشوش

(١) تقع الباء في ترتيبها من أحرف الهجاء قبل الحاء.

(٢) الذي ليس فيه باب ولا نافذة

ذهب منه صوابُ العلاج ووقع فيه خطأ السَّم !
 والمنافق هو سياسى الحب والصداقة ؛ يضع المنفعة بين عينيه
 ثم تتوزع على جوارحه كل أساليب الكلام والحركة والعاطفة ،
 فلا يخرج لك من عُقدته إلا أن يَعْقِدَ هو بأسلوب وتحل أنت
 بأسلوب آخر ؛ وترى صداقته تنتهى أكثر مانتهى إلى مثل
 المقاطعة الحربية بين فراعنة السياسة وشياطينها : يرمى الداهية
 منهم داهية آخر « بإبذار نهائى » حاسم يحمل الزلازل فى كلماته ،
 وينصب للحساب ميزان الهوان والهلاك ، ثم يقول له فى آخره :
 « وإنى أغتتم هذه الفرصة لأؤكد لكم احتراعى الفائق » ! ...
 ولن تجد شراً من هذا الأسلوب يَنْتَحِلُه رجل ، إلا الأسلوب
 عينه تنتحله امرأة ! ...



والله الذى لا إله إلا هو ، مارأيت كالمنافق رجلاً ، إلا
 ذلك الواقف يُدير وجهه بين مَرَأَى عن يمينه وشماله ومن
 ورائه وبين يديه ؛ فله فى كل واحدة وجه ، ويتعدد الرجل
 وهو شيء واحد .

يخلق الله كلَّ شيء ليسكون شيئاً على الأصل البين الذى
 خلق عليه ، والأمر الميسر الذى حُلق له ، وهو صريح واضح
 من جهتيه ؛ فالأشياء فى الطبيعة هى ماظهرت به مشيئة الله ،

تضر لأنها ضارة، وتنفع لأنها نافعة؛ ولكن المناق كإنما خفيت
 مشيئة الله فيه؛ فهو من ناحية الإنسانية مخلوق للنفع فضر، ومن
 جهة الحيوانية خلق للضر فنفع، وفي الرذيلة خلق تلويثاً للرذيلة،
 وعند نفسه خلق لأنه خلق!... فأنت تعرفه من جهة على قدر
 ماتكرهه من الأخرى ولو كانت الجهتان متقابلتين؛ فهو دائماً في
 نفاقه مختلف على السر والعلانية، وعلى المذهب والغاية، وعلى
 المدخل والمخرج، وعلى القول والعمل؛ ومختلف حتى في كونه مختلفاً
 أو مستقيماً!

ولو مددت عينيك في عينيه لرأيت أنه يتخاوص لك بإحداهما^(١)
 كأنك أبيض من شعاع الشمس وإن كنت قد خرجت من مصنع
 التجليد الإلهي في جلد أسود؛ إذ تأبى إحدى عينيه على كل حالة
 إلا أن تنافق ليظهر النفاق عليها. وهو من الذين يـمـكـرون
 السيئات^(٢) لينتهوا منها إلى حسناتهم، ويقاربون الذم ليخلصوا
 منه إلى الحمد، ويسفّلون ليرتفعوا. كما يبتدئ المقلع دورته من
 الأسفل ليرمي بحجره رمية عالية؛ ومهما انتحلوا من العلل
 واختلقوا من المعاذير وقولهم إن ذلك سياسة ومخالقة^(٣) وظرف

(١) يقال: هو يتخاوص، ويتخاوص: إذا غض من بصره شيئاً ود مع ذلك يحرق النظر.

أو إذا نظر كما ينظر في عين الشمس

(٢) يتحرون الأفعال السيئة ويقصدونها

(٣) مجازاً كل إنسان على أخلاقه

وأدب من الذوق ؛ فهم لا يأتون كل ذلك إلا لأن كل ذلك
— عِلْمُ اللَّهِ — هو النفاق .

وباليت عِلْمُ الأخلاق كَعِلْمِ الجغرافيا ، إذن لكان له من
وجوه المنافقين مصوّراتٌ ملوّنة... ولاضطر العلماء أن يجمعوا
من بعض السادة الكبراء مجاميعَ ويقيموا لهم معارض !...
وتلك حقيقة لم يظن لها علامة القروذ الفيلسوف (دارون)
ولو هو فطن لها فكيف له بمجموعة أقبح ما فيها وجوه
عظماء الناس ... ؟



إن المنافقين من العامّة وأشباه العامة بجانب المنافقين من
الخاصة وأشباه الخاصة لكالشّر يتطّير عن الجر : إن هو
لذّع لم يُحرق ، وإن لم يلذّع انطفأ ؛ فإن خبثت منه شرارة
جهنمية وتلذّعت ووقعت فيما تستوقده وردّته حريقاً ، فما يجيء
ذلك من كونها شرارة كبيرة بل من كونها جمرّة صغيرة ؛
فأشأن إذن في هذا الجر الذي يتطلّى بمادته ؛ لأن له مادة
استفادها من عناصر الأرض واجتمع منها غذاء النار فيه كما
يفيد أولئك من المال والجاه والعلم والأدب وما إليها وإن
شر النفاق مادخلته أسباب الفضيلة ، وشر المنافقين قوم لم
يستطيعوا أن يكونوا فضلاء بالحق فصاروا فضلاء بشيء جعلوه

شبه الحق !

ولعلّ هذا النفاق هو أصغرُ رذائل الصغار وأكبر رذائل الكبار ؛ لأنّ للحاجة في أولئك شرعة ومنهاجاً ، وللضرورة أحكاماً وقانوناً ؛ فالعالم حين ينافق لكبير من العظماء ويتخضع له ، إنما يوازن بين ما يعرفه في ذات نفسه من الصغار والضعة ، وبين ما يتوهم في صاحبه من العظمة والقهر ؛ فهو يترقى إليه ليدنو منه ، أو يترقى إلى خديعته ^(١) ليناله ، أو يترقى إلى كبريائه ليأمنه ؛ ثم هو في كل ذلك نازلٌ على حكم الحاجة والضرورة ؛ ولو اعتبرت الرجلين الصغير والكبير على الحقيقة ووزنتهما في ميزان الأسباب ، لرأيت المنافق منهما أكبر للكبير . من لم ينافق ... ؛ لأنّ ما لا يُخاض إليه إلا في الوحل ، لا سبيل إليه إلا من الوحل ؛ وذلك العظيم رجل بناه النفاق فجعل باب نفسه عند قدميه ، فإذا أردت مفتاح هذا الباب فاحفض رأسك ، مامن ذلك بُد ؛ غير أن نفاق الكبار للكبار شيء أكبر من النفاق في نفسه ، وإنما سُمي به تسامحاً وتجاوزاً ، أو لأن اللغة تُنافق هي أيضاً ... وإلا فنفاقهم إن كان صدقاً فأكبر فضيلته الكذب ، وإن كان حقيقة فأعظم أدلتها الوهم ، وإن كان علماً فأكبر شرفه الجهل ؛ وهو التّخضع ينقلب ضرباً من العبادة ، وهو الوصف المزور يُرجع نوعاً من الخلق الذي لم يخلقه الله ؛

(١) يتسبب لما يتخذه ، من شيء إلى شيء .

ثم هم طبقات ولكلّ نفاقها ، ولا تدرى أعلاها أسفلها أم أسفلها الأعلى ، ولكن الشر دائماً بالجملة ، وهم في الجملة يتخلفون ويتصنعون بما نعرف وما لا نعرف ؛ والكبراء هم موضع الفصل والوصل في بلاغة الاجتماع ، وكل رأس منهم فهو كرأس الشارع : لا بدّ لك أن تلتوى أو تنحرف إذا أنت بلغتّه ، فإما أرسلك في طريق خير أو شر ، وإذا كان هذا فإن كل واحد من كبار المنافقين ومنافقي الكبار هو على التحقيق نقطة انقلاب في أخلاق من حوله من الناس

إن مادة حوادث التاريخ هم أولئك العظماء ، فإنك لتجد الرجل العظيم في أخلاقه العالية وسجاياه الكريمة ، وفي تأثير هذه الأخلاق والسّجايا على الناس - أشبه بالفتح التاريخي لمبين ، وبالنصر القوى العزيز ، ويكون الرجل إنساناً ولكنه تاريخ ؛ وتجد إلى جانبه المنافق العظيم ... في أخلاقه السيئة وطباعه اللثيمة ، وفي تأثير هذه الأخلاق والطباع على الناس - أشبه بتاريخ ضربة من ضربات الله ^(١) ، أو تجزرة من تجازر الحروب ، ويكون إنساناً ولكنه على ذلك تاريخ !

(١) ضربات الله : الأحداث الكبرى في الناس : كالطوفان والأوبئة وغيرها

الفرد في التاريخ
المنافق العظيم

ولا أعلم في هذه الدنيا شيئاً لا يستطيع أن يوجد شيئاً آخر؛
 إذ الموجودات كلها مبنية على التحليل والتركيب؛ وهذا النفاق
 في أصله مبنى على الكذب السافل، فإذا خرج منه شيء خرج
 منه الكذب العالى... فترى السياسى يبالغ في النفاق ويزعم أنه
 يتكلم بلسان المستقبل، وينافق الأديب فيقال زُخرف من
 القول ومبالغة في البلاغة؛ ونفاق ذى السلطة تَوَاضَعُ، والنفاق
 من العالم مَسْلَك من دقائق علم النفس، ومن الغنى مالٌ يجذب
 مالا، ومن السفه اللثيم شرٌّ يطلب خيراً؛ فإن هو كان من
 امرأة قيل حب، أو من طفل قيل تحبب،... وكما تَرَدَّد
 المركبات كلها إلى أجزائها المفردة، فإن نفاق أهل الأرض
 جميعاً يرجع إلى الطفل الصغير كما يَنْبَشِقُ النهر العظيم على مد
 مجراه من المنبع، وينتهى إلى مصبه وقد جمع من أقدار طريقه
 على طول ما يمتد... فنفاق الطفل يكون في أصله مكافأة عن
 محبة أمه وذويه، ثم يكبر فيصيح تودداً إليهم، ثم يعظم فينقلب
 حيلة يحتالها العقل الصغير ليخضع بها العقل الكبير لهوائه وهيناته؛
 ثم لا تزال تُدَاخِلُهُ بعد ذلك الأهواء والشهوات حتى ينعصر
 نفاقاً فإذا هو ما هو

يَبْدُ أن ما يكون من نفس الطفل يكون مغفواً عنه في
 الأغلب، كأنه ليس من نفس، أو كأن هؤلاء الأطفال حين

يتواثبون ويقفزون في اللعب واللهو يقفزون كذلك من حدود الشرائع... فللرجل من كل قاعدة حدّ محدود ليس وراءه إذا هو تخطّاه وتعمّده مجاوزته إلا حائطاً من السجن أو حائط من اللعنة أو حائط من جهنم ، ولكن الطفل يتخطى ذلك الحسد وثباً ويكون قد وثب على السجن وجهنم بطبقاتها السبع ولا يقع في واحدة منها ؛ فهما نافق الصغير فهو ذكي خبيث ، ولكن نفاقه ينتهى بقبلة على خديه أو لطمته ...

لا الصغار في منازل العمر من الأطفال ، ولا الصغار في مراتب العمران من العامة — يصلحون أن يقوم بهم النفاق ؛ لأنهم جميعاً ينسحبون على أصل واحد من الطبيعة ، وهو صغر النفس وانصرافها إلى معاني الجسم دون معاني العقل ؛ فلو أنك رأيت طفلاً ينافق لطفل مثله ، أو شهدت عامياً من الناس يصانع رجلاً من قياسه المنطق ... لرأيت في ذينك نوعاً من الضحك الساكت ، وفي هذين ضرباً من الوقار الذي يضحك منه ... إن عظمة النفاق هي نفسها في عظمة أهله الكبراء ، وكل شيء قد يصلح موضعاً للبحث والنظر والجدال ، إلا ما يعتقد الرجل العظيم أنه عظيم به ؛ وهنا موضع التأله الذي شرع من أجله سجود النفاق وركوعه وتهليله وتسبيحه ؛ فصغار العظماء كأنهم في حاجة إلى النفاق ، لأن فيهم شيئاً عالياً لا يظهر حد

علوه إلا إذا قيس من نقطة سافلة ، ... فإذا أنت عرضت لهم
على شرطهم فنافقت واستخذيت ونزلت عن كرامتك ، رأوك
مع ذلك منافقاً عند نفسك فقط ؛ واحتجت بعد كل هذا إلى
ضُروب أخرى من العنت الشاق على النفس ، حتى يعرفوا بعد
أن يجهدك النفاق أنك منافق ؛ فلا تبلغ اليهم رذيلتك إلا وقد
صرت في جملة من الرذائل !



وإني لأحسب أن النفاق هو بقية ما وقرَ في النفوس الجاهلة
من عهدها الأول ، عهد التعبد لكل ما يضر أو يُتَوَهَّم فيه الضرر ،
والتقديس لكل ما ينفع أو يُظَنُّ فيه النفع ، وتكون أرواح
الأصنام والأوثان والعُجول والبقر والحشرات والعواصف
والصواعق وغيرها مما كان يُخص بالعبادة قديماً — هي بأعيانها
ما تتمثل فيه أرواح أولئك السادة الكبراء الذين يشغل ظلمهم على
الروح ثقل الضباب ، ويتراكم على القلب تراكم السحاب ، ولا
يرضون باباً من النفاق إلا أن يُفَضَّى إلى باب ... ثم تكون
أفعال المنافقين في دِهانهم ومصانعتهم وما تتروَّح به أرواحهم ،
هي في ذاتها بقايا تلك الرعدة والفرع والضراعة وتمريغ الوجوه
والنمَّسح وما إليها مما صَغُرَتْ به أحلام لتكبر أوهام ، وكان
عبادة أجسام لأرواح فصار عبادة أرواح لأجسام !

أصل
النفاق

والعظيم الذى تنافق له ولا يُشكر عليك ولا يرذك ، ثم لا يرضاك ولا تُرضيه إلا على هذا النحو ، هو فى رأى رجل خرافى من المعبودات الأولى يحتاج إلى نبي يمحوه ، فإن لم يكن نبي فرجلٌ حكيم يكشف للناس عن وجه الخُرافة فيه ، فإن لم يكن فذو عزيمة يصولُ به أو يستطيل عليه ، فإن لم يكن فذو دين وتقوى يُريه وجه السماء من دينه وزُهدده ، فإن لم يكن فذو علم يقنعه أنه كان تراباً وسيكون عظاما ورُفاتا ... فإن خلا قومه من كل أولئك فقد زين لهم (الشيطان) أعمالهم ، وقد رفع الله عنهم يده فلا يبالى فى أى وجه هلكوا !



أما إنه لا ينافق إلا الخبيث الذى يحاول أن يقتحم النفوس وهى غافلةٌ عن أبوابها ومنافذها ، فنفاقه من التلصص ؛ وإلا الضعيف الذى يريد أن يقوى بضعفه فهو يحتال على أن يأخذ القوى من أضعف مكانٍ فيه ، ونفاقه من المكر والخداع ؛ وإلا الغاصب الذى يطمع أن يكون الشيء له وليس له ، ونفاقه من الظلم ؛ وإلا القوى متى أراد أن يسوق بقوته مساق الضعف لينال بها من غير أن يؤذى ، فنفاقه من الكبرياء ؛ والخامسة أن روعة الحب فى عاشق تنافق لروعة الحسن فى معشوق ... ! وكذلك لا يرضى عن النفاق ولا يُقرّه إلا جاهل اكتفى من

العلم قبل أن يعلم ماهو العلم ، أو مُسْتَكْبِرٌ عَمِيَتْ نفسه عما حولها
وعما فوقها ، أو غِيْبِي يعرف عقله في وهمه ووهمه في عقله ولا
يعرف عقول الناس ، أو ذو سلطان دَنَتْ مَحْنَتُهُ وأظَلَّتْ مَأْمَكُهُ
النَّقْمَةُ فهي تسلك إليه سُبُلًا مختلفة منها فسادُ الناس ومنها النفاق ؛
والخامسة أن يَمْتَلِئَ نَظْرُ الجميلة رضا وسحراً حين يَمْتَلِئُ فَمُ المَحِبِّ
نفاقاً في هواها ... ١

وأنت فكيف اعتبرتَ النفاق رأيتَه كذباً وخداعاً ، ثم
مَكْرَافاً ومُصَانَعَةً في الحق ؛ فإن هو فشا في طائفة من الناس أَلْفَيْتَهُم
في الجملة كأنما تعاهدوا بينهم على ألا يصدقوا ولا يَنْصَحُوا ولا
يَأْنِفُوا ولا يُقَارِبُوا الحق ؛ فإذا كثر هذا السوادُ في شعبٍ رأيتَه
لا يُحْسِنُ من الحياة إلا الأسباب التي يقتل بها نفسه إن كان قويا ،
ولا يَهْتَدِي لغير طرق الفقر إن كان غنياً ، ولا ينفع إلا أعداءه
إن كان شعباً ذكياً ، ولا يعمل إلا على الشُّحْرِه لغيره إن
كان عاملاً فَتِيًّا !



وكل منافق وصاحبه الذي ينافق له ، رجلان لا يفهم أحدهما
الآخر ؛ أو تكون بلادة الحس قد بلغت من أحدهما أن يتظاهر
بأنه لا يفهم وبلغت الغِلْظَةُ من صاحبه أن يظهر كأنه غير مفهوم ؛
وكلاهما غطاءٌ مُكْفَمٌ على حقيقته ، ولكن الحقائق المغطاة بأغطية

الكذب موضوعةً أبداً على نار تتقد من عزائم المصلحين ونفوس
الحكماء وقلوب الأحرار ، فلا تزال تغلي كلما طال بها العهد
حتى تنفجر من أغطيتها ، فإذا الزور قد طاح به ما انكشف عليه ؛
وكان ذلك من سنة الله في إصلاح الناس ؛ وكان من سنة الله
كذلك أن تجد الناس ينافقون جميعاً ، إلا مُصلِحاً أو حَكِماً أو
رجلاً حرَّ النفس !

الفصل السادس

الصغيران

والآن أرى السحاب رقيقاً مُهَلْهَلًا كأنه في سَرَقَةٍ من حرير أحمر^(١) ، يشرق إشراق الروح في الطفل الصغير الذي كَفَلْتَهُ رحمةُ الله فتركته إذا ضحك استَوْضَحَتْ له من الضحك معانٍ لانهاية لها ولا يعرفها الناس ، فما ينفك من شيء يُضحكه أو يسره ، وإذا بكى لم يجد للبكاء إلا معنى واحداً من تلك المعاني الكثيرة التي يعرفها الناس ؛ فهم لا ينفكون من البكاء أو معانيه في هموم الحياة !

تقوم الطفولة في روحها وعهدها وحوادثها على عقيدة واحدة ، هي أن كل ما كان فسيكون غيره ؛ وهي تعرف ذلك يقيناً جَزْماً لا شك فيه ، وحكما فصلاً لا مَعْدِلَ عنه ؛ فالصغار على أي أحوالهم هم كبار الناس في هذا المعنى

إنك لتعرف الرجل لا بأس بعقله ، ثم تراه فيما ينزل به من الحوادث فإذا هو من النقرة والهم والقلق صورةٌ كاملة من اضطراب فكره في حكمة ما ابتلى به ؛ فإذا نظرت إلى الطفل في مثل ذلك رأيته صورة أخرى من نفس حزينة راضية

(١) سَرَقَة الحرير : هي القطعة من النوع الجيد منه فتكون رقيقة مشرقة

مستسلمة قد أَقَرَّتْ فيها رحمةُ الله بحكمة الله ؛ فالحزنُ فيها سببُ
الهمِّ ولكنه كذلك سببُ الأمل !

جلستُ ليلةً مع ضُحْبَةٍ من الأدباء في نَدَى^(١) على عُنُقِ شارع
كذا بالقاهرة ؛ وكنا في الوقت الذي يُقبل فيه الليلُ على أعماقه
قبل أن ينتصف بمنزلة واحدة^(٢) ، تلك الساعة التي هي أول
عهد الليل بالتنفس تحت الأجنحة السماوية^(٣) ، تنزل إلتخيم
على أعمال الأرض في يومها الغابر ، ثم تأخذ في تهية الجمال
السماوي البديع الذي سيخلق منه الفجر !

وكان إلى جانبي أديب سَكِير ، نسميه « دِمِيَاط الحانة » ...
لأن فرعاً من نهر الخمر ينصبُّ فيه كما ينصبُّ فرع النيل عند
(دمياط) ! وقد عودته الكأس أن يتخذ الليلَ نهراً والنهار
ليلاً ، فما ينصرف إلى بيته إلا في فروع الصبح^(٤) ، ولا ينام
إلا والعالم كله متيقظ ؛ ويزعم أنه لا يهتدى إلى عقله إلا إذا
أضاعه ساعة أو ساعتين^(٥) ؛ ولا يُحسن تصفية الكلام وترقيق

(١) قهوة

(٢) أى ساعة

(٣) كناية عن الملائكة

(٤) أوائله وأعاليه

(٥) كناية عن السكر

المعاني إلا إذا نَضَحَ جوفه بماء الشعر ^(١) !

وكان في تلك الساعة قد حَطَّ عليه الساقى حتى انتهى في
سماواته الوهمية إلى الأفق الزجاجى ، فعاد كلامه رنيناً وطنطنة
لا يفهمه إلا صاحب الحانة وحده ... فلما دَهَتْه الداهية من
كُرب الخمر ، تخطى حدَّ إنسانيته إلى البهيمية السائمة ؛ وماكاد
يرتفع الستار الإنسانى عن مسرح أخلاقه ، حتى رأيتنى في رواية
عجيبة يمثلها أربعة اجتمعت أرواحها في شخص واحد : سفيهٌ ،
ومعتوهٌ ، وأحمقٌ ، وأديب ... !

وجعلت أتأمل على يقين الخبرة وأشهد على حقِّ النظر
عجيبة هذا العقل الإنسانى الذى يسبح في الأفلاك ، ويتطوح من
شاطئ المجهول إلى شاطئ المعلوم بوثةٍ أسرع من ضربة الجناح ،
ثم هو مع ذلك يغرق في زجاجة خمر ؛ وصرتُ أرى كيف
يتحول النبوغ العقلى في بعض ساعاته إلى صناعة خسيصة ، هي
صناعة الأديب نفسه الشريفة بهيمة من البهائم ؛ وعلمتِ عِلْمَ
هؤلاء الأدباء الذين يحسبون الخمر تَوْحى إليهم وما فى مِلءِ
الدنِّ منها ما يعدل فائدة نقطة واحدة من قوة الإرادة

لقد رأيتُ وعلمتُ وشهدتُ بعينى رأسى كيف يَبْوءُ هؤلاء

بالمأثم والمغرم جميعاً ؛ ^(١) وتالله إنه لا يسرُّ على الباحث أن يجد
الشراب الذي يغترُّف منه الظمآنُ بكفيه ماءً زلالاً ، من أن
يعثر على السكاس التي يقتبس منها السكيرُ فضيلة أو فائدة

ولو رجع الأمر إلى لما جعلتُ عقوبةَ الخمر إلا تحطيمُ
الزجاجات على رؤوس شاربيها ؛ وهب أن رأس الأديب السكير
هو رأس أرسطو علماً وذكاءً ؛ فذلك أدعى لتحطيمه ، لأنه إن
يكون في عربدته وسكره وانحطاطه وسقوط همته إلا رذيلةً
يدافع العلمُ والذكاءُ عن وجودها ، فينصّبها الشيطانُ مثلاً للتقاييد
ويتخذها الأغرارُ والضعفاء قاعدة للباطل المتع ، يعملون على
احتذائها ، ويتحولون عن فضيلتهم بحُجتها ؛ فيصح هذا الرأس
الواحد كالمطبعة : متى حبرها الطابعُ نقلت ما فيها « بحروفه » إلى
كل الصحف البيضاء التي تلاسها !

... وفي تلك الساعة كانت الأرض قد عرّيتْ إلا من
أواخر الناس وطوارق الليل وقيمة من يقظة النهار تحبوا في
الطرق ذامبة إلى مضاجعها ؛ فبينما أمُدُّ عيني وأديرهما في مُفتتح
الطريق ومُنقطعاه ، إذ انتفضت انتفاضة الدُّعر ، ووثبت رَجَّة

(١) المأثم : الاتم والذنب ، والمغرم : ما يغرّم عليه من المال ، قاتلهم الله ! يشتركون
بأموالهم « تذاكر الدخول إلى جهنم » ...

القلب بجسمى كله كما تثب الآسعة بملسوعها ؛ ذلك حين أبصرت
الطفلين ...

صغيران ضلّا من أهلهما فى هذا الليل ، يمشيان على حيد
الطريق ^(١) فى ذلة وانكسار ، وتحسب أقدامهما من البطء
والتخاذل لا تمشى بل تنزحزح قليلا قليلا فكأنهما واقفان .
أكبرهما طفلة تُعدّ عمرها على خمس أصابعها ، والآخر طفل
يبلغ ثلاث سنوات ؛ ينحدران فى أمواج الليل وقد نزل بهما من
الهم فى البحث عن بيتهما ما ينزل مثله بمن تُطوِّح به الأقدار إذا
ركب البحر المظلم ليكشف عن أرض جديدة

تدبّين الخوف فى عيونهما الصغيرة ، وتراه يفيض منها على
ما حولهما ، حتى ليحسب كلاهما أن المنازل عن يمينه وشماله
أطفال مذعورة ! ...

ويتلفتان كما تتلفت الشاة الضالة من قطيعها : لا يتحرك فى
دمها بالغريزة إلا خوف الذئب !

(١) هو التلّوار : أى جانب الطريق . عن ابن سيده : « حيد الجبل : شاخص
يخرج منه ، وجبل ذر حيود وأحياد ، إذا كانت له حروف ناتئة فى أعراضه » .
قلا : وهذه صفة التلّوار إلا أنه غلظ فى جانب الطريق لافى جانب الجبل . وبعضهم
يترجم التلّوار بالافريز ، وهى كلمة مشتركة ، أكثر ما تستعمل فى النقوش البارزة ،
وبعضهم يستعمل الطوار (بفتح الطاء) ، ولكنه لدار ما يمتد معها من فناءها ، وبعضهم
يستعمل البرزوق ، وهى ثقيلة نافرة ، ولا أفصح وأخف من الحيد ، تقول : حيد الطريق ،
وللشارع حيدان ، وحيود الطرق وأحيادها ، وعلم جرا

وَيَتَسَحَّبَانِ مَعَا وَرَاءَ الْأَشْعَةِ الْمُنْبَثَّةِ فِي الطَّرْقِ ، كَأَن أَضْوَاءَ
الْمَصَابِيحِ هِيَ طَرِيقُ قَلْبَيْهِمَا الصَّغِيرَيْنِ .

منقطعان في ظلام الليل ، وليس على الأرض أهناً من ليل
الطفل النَّائِمِ ؛ فهل يكون فيها أشق من ليل الطفل الضائع ؟
فأمت أحلامهما واستيقظت أعينهما للحقائق المظلمة الفظيعة ؛
وضاعا من البيت ويحسبان أن البيت هو الضائع منهما ...
طفلان في وزن مثقالين من الإنسانية ، ولكنهما يحملان وزنَ
قناطرٍ من الرعب .

يَا مَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، مِنْ سِوَاكَ لَهَا تَيْنِ الثَّمَانِينَ فِي جُنْحِ هَذَا
الليل الذي يشبه نقطة من غضبك ؟ لقد أخرجتهما في هذا الضياع
مُخْرَجَ أَصْغَرِ مَوْعِظَةٍ لِلْعَيْنِ تَنْبَهُ أَكْبَرَ حَقِيقَةٍ فِي الْقَلْبِ ، وَعَرَضَتْ
مِنْهَا الْإِنْسَانِيَّةُ صُورَةً لَوْ وُفِّقَ مَخْلُوقٌ عِبْقَرِيٌّ فَرَسَمَهَا لَجَذَبَ إِلَيْهَا
كُلَّ أَحْزَانِ النَّفْسِ !

صورة الحب يمشى مُتَسَانِدًا إِلَى صَدْرِ الرَّحْمَةِ فِي طَرِيقِ الْمَصَادَقَةِ
الْمَجْهُولِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ، وَعَلَيْهِمَا ذَلَّ الْيَتَمُ مِنَ الْآهْلِ ، وَمَسْكَنُهُ
الضَّيَاعُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَظِلَامُ الطَّبِيعَةِ وَكَآبَتُهَا !

رَأَيْتِ الطِّفْلَةَ وَقَدْ تَنَبَّهَتْ فِيهَا لِأَخِيهَا الصَّغِيرِ غَرِيزَةُ أُمِّ
كَامِلَةٍ ، فَهِيَ تَشُدُّ عَلَى يَدِهِ بِيَدَيْهَا مَعَا كَأَنهَا مُدَّ عَلِمَتْ أَنَّهَا ضَائِعَةٌ
تَحَاوُلُ أَنْ يَطْمَئِنَّ أَخُوهَا إِلَى أَنَّهُ مَعَهَا ، وَلَنْ يَضِيعَ وَإِنَّهُ

معها ^(١) ! فيالرحمة الله !

وقد أسندت مَنْسِكَبَهُ إلى صدرها وهي تمشي ، فلا أدري إن كان ذلك لتحمل عنه بعض تعبهِ فلا يتساقط ؛ أو ليكون بها أكبر من جسمه الضئيل فلا يخاف ؛ أو لأنها حين لم تستطع أن تفهمه ما في قلبها بلغة اللسان أفاضته على جسمه بلغة اللبس ؛ أو لاهذا ولا ذاك ، إنما هي تستمدّ من رُجولته الصغيرة حماية لأنوثتها بوحى الطبيعة التي رسخت فيها !

أما الطفل فمُسْتَدِلٌّ خاشع ، لو تُرجمت نظراته لكانت هذه عبارتها : اللهم إن هذا العمر يومٌ بعد يوم ، فأنقذنا من بلاء يومنا !

ولما وقفنا بإزائنا ، كان هذا الصغير يقاب في وجوه الناس نظراتٍ يقيمه ترتد على قلبه آلاما لارحمة فيها ؛ إذ يشهد وجوها كثيرة ليس لها ذلك الشكل الإنسانيّ المحبوب الذي لا يعرفه الطفل من كل خالق الله إلا في اثنين : أمّه وأبيه !

وما أسرع ما تنادى الناس وأطافوا بهما ، وما أسرع ما لاذ المسكين بأخته واستمسك بها ؛ كأن وسائل الرحمة تخيف كما تخيف أسلحة « الجراح » ^(٢) ، أو كأن الأصل في هذا الإنسان

(١) حالة أنه معها ، وهو تركيب من أبداع الكلام

(٢) الجراح كلمة محدثة ، وصوابها الجراحی في اللغة القديمة ، ولكن الأولى أفصح ولا بأس بها لغة

هو العُدوان على أخيه وظلمه واجتياحه ، فكل حركة إنسانية مشكوكٌ فيها حتى يقع أثرها ، لأن الإنسان نفسه سِتار مُسدِلٌ على نيته ، وهذه النية آلة الأَطْماع ، فلا تزال في يد الكذب دائماً لا يدعها للصدق إلا فيما لا « ينفع » ...

وكان الطفلُ المسكين في جملة النظر إليه ، خَلَقاً من الحب المأول الذي يُلهِبُ الدم ؛ يرسل من عينيه الدَّعْجَاوِينَ سحرَ المذلةِ الفاتنة ، تلك المذلة التي أعرفها أقوى ما في الحب إذا تذلت الحبيبة في نظرة ضارعة ترسلها لمحبيها المفتون ، فلا تُبقي في رأسه رأياً ولا في قلبه نية ، وتذلُّ له لينذل هو لا غير ، كأنَّ أحبَّ العزِّ في أحبِّ الذل !

ونظر إلى أنا أولَ رَمَقَةٍ ، فذكرت أطفالي ؛ فتزَلَّزَل قلبي وأحسست أن دمي استحال إلى بارود وقع فيه الشرر !

وهؤلاء الأطفال الصغار هم إنسانية على حدة ، فكل أب هو أبو هذه الإنسانية كلها ؛ ولن يُطبق من كان له طفل أن يرى صغيراً ضائعاً في الطريق يستهدى الناس إلى أهله ويبيكي عليهم ؛ أو طفلاً جائعاً يعرض على الناس وجهه المنكسر ويستعطفه بصوته المريض أن يُطعموه ؛ أو طفلاً يتيماً قد ثكل أهله وصاق بقسوة أوليائه فانطرح في ناحية يبيكي ويتفجّع ويسأل من يعرفون الموت : أين أبي ؟ أين أمي ؟

هؤلاء جميعاً ليس بينهم وبين قلوب الآباء والأمهات
حجاب ؛ إذ ليس فيهم من الناس إلا اضطرارهم إلى الناس ؛
فهم الإنسانية الرضيعة التي خُلق من أجلها القلب الإنساني
في شكل ثدى .

واطمأن ذلك الطفل إلى صدر أخته ومال برأسه عليها ،
ثم أطلق عينيه فينا جميعاً ، فما حسبته أراد ألا أن يخبأ في
قلبا أفكاره الصغيرة ثم ينظر إلى هؤلاء الناس نظرات
مجردة بلهاء كما ينظرون هم إليه ؛ إذ لم ير فيهم من فتح له
ذراعيه ، ولا من حمّله ، ولا من تحنّ عليه ، ولا من ضحك له ،
ولا من أعطاه شيئاً يأكله !

ألا إنما الناس صُورُ الفكر وصورُ القلب ، فمن لم تر
فيه صورة من أفكارنا التي نلتئمُها أو من أهوائنا التي نخبأ ،
فذلك ليس منا وليسنا منه وإن سُمّي أخاً في لغة النفاق ، وإن دُعِيَ
حبيباً في لغة المجاملة ؛ بل هو مخلوق ليسكون النموذج الذي نتعلم
عليه البغض إن كان متصلاً بنا ، أو التسامح إن كان بعيداً عنا
ولم تتصل بنا ولا أخباره ...

وكم بين الناس من اسمٍ تعرفه على صاحبه كهذا النور الأحمر
الذي يضعونه في الطرق فيضيئون به من الليل فوق الحفر ...

لِيُنْذِرَ النَّاسَ مَا وَرَاءَهُ وَيَقُولَ لَهُمْ بِصَوْتِ النُّورِ : ههنا ما ينبغي
أَنْ تَحْذَرُوهُ ، ههنا حفرة ... !

إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فهم منقسمون
حين يولدون أسباطاً أسباطاً باختلاف الدم في كل أسرة ، وهم
متفرقون حين يذشئون أفواجاً أفواجاً باختلاف الصحبة في كل
فئة ، وهم مُتباينون حين يتدفعون أحزاباً أحزاباً باختلاف
الهوى في كل طائفة ، وهم متناكرون حين يتنازعون أمماً أمماً
باختلاف المنفعة في كل أمة ؛ فتلك أربعة وجوه تلبسها الإنسانية
فيهم ؛ ومن ثمَّ قُضِيَ على هذه الإنسانية المسكينة في الأرض
أن تكون ثلاثة أرباعها عداوة ، كالأرض نفسها : ثلاثة
أرباعها ماءٌ ملح لا يُسَاغ ولا يشرب ، وإنما منفعتها للكون كله
في الجملة ! ... ولعل شيخاً من الشيوخ لو تدبّر حياته وأحصى
أقدارها وميّز أنواع حوادثها وما أتى عليه فيها من أولها إلى
آخرها ، لرأى ثلاثة أرباعها ملحاً أيضاً ... !

إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فليس يأتي للوالدين
أن يربّوا من أولادهم ناساً ، بل أهواء ومطامع يناقض بعضها
بعضاً : مطامعُ تتبع أسبابها ، وأهواءُ ترجع إلى غرائزها ؛ فلو
أن أهل هذه الأرض بلغوا بما لا نعلم من الوسائل أن ينظموا
ظاهر دنياهم حتى يكون سواء لا يخالف شيء منه على شيء ؛ لبقى

الانتقاض والاختلال في باطن الإنسان حتى لكان بعض الدم يُخلق غالباً على بعض الدم . وإنه لا شيء في هذه الحياة إلا وقد خُلق معه ضده ، فإذا استقامت الأمور فلن تكون الأضداد لعمري ؟

إنما الناس صور الفسکر أو صور القلب ، فدنيا كل إنسان في شيئين : ما يَنْزِعُ إليه بفسكره ، وما يميل إليه بقلبه ؛ والإنسان من كل إنسان أحد اثنين : من تُرَجى به المنفعة ، ومن تكون فيه المحبة ؛ والإنسانية من كل إنسان في منزلتين : أدنى الحب ، وتلك منزلة الصداقة ؛ وأعلى الصداقة ، وهي منزلة الحب ؛ فأما ما وراء ذلك فصحراء الإنسانية السكبرى المقفرة من قلب الشخص وفسكره . ولولا الأديان لحربت الدنيا ، فإن هذه الأديان قد عَمَرَت هذه الصحراء بعنصرين جليلين أنبتا فيها القلب والفسکر ، وهما : خوف الله في خلقه ، ومحبة الله فيهم ؛ فحيث وُجد هذا الخوف وهذه المحبة ، وُجدت الإنسانية ؛ وعلى ذلك فالإنسانية العامة الحقيقية هي الإيمان ، والإنسان العام الصحيح هو المؤمن والسلام العام الكامل هو الله جلّ جلاله .
ولكن يا شقاء الإنسان العَصر ! إن أعجب ما في الشر أن اختلاف الناس في فهم هذه الثلاثة هو أصل الشر !

وسألوا الطفلين أسئلة سياسية ... ما وطنهما ؟ وما جنسهما ؟
أى من أى شارع ومن أى والد ؟

ألا ضلّ ضلّا لكم أيها الناس ! فلو أنهما يعرفان من أى
شارع ومن أى والد لما كان منهما ماترون : على أن الطفلة
تجلبجت في بعض كلمات تشبه اضطراب قلبها : وكان الصوابُ
كله ماثلا لعينها مجتمعاً في ذهنها ، فالبيت والشارع والأب والام
كل ذلك واضح في خيالها : وليكن الذى استَبهم عليها هو
تحديدُ نسبته إلى هذا الوجود الذى تراه كله بيوتا وشوارع
ورجالاً ونساء . وإنما تحديد الشيء هو تعبير الطبيعة عنه ،
وإنما تعيين نسبته من غيره هو تعبير الشيء نفسه عن
خصائصه : فإذا أنت عرفتَ نسبته من سواك ، وحصرت هذه
النسبة في حدودها وأسوارها ، فقد أمنت الخطأ في سعادة
نفسك ، وأصبحت بتلك المعرفة أسعد إنسان .

ولكن مَنْ لك بهذه المعرفة وبهذا التحديد ، وقلوبُ الناس
كافةٌ كأمواج البحر في البحر : تظهر كل واحدة قائمة بنفسها في
رأى العين وهى راجعة في جميعها إلى أصل واحد ، هو هذا
السَّيَال المتحرك الذى يَتَضَرَّبُ بعضه في بعض ليوجد الأمواج
ويقفيها .

ما أراني أعرف بعد طول الفسك سببا للشقاء الإنساني
يجمع كل ضروبه إلا سببا واحداً؛ هو أننا مَعْدُون لكل الحالات
المختلفة التي تَطْرَأ على الحياة بقلب من نوع واحد؛ فإذا استطعنا
أن نجعل ظواهرنا موضعَ الترتيب، فإن بواطننا أبداً موضعُ
الاختلاط والألم والنكد،

* * *

ولما رأيتُ حيرةَ الطفلين، ضممتها إلى وأطيتهما عن كآبةِ
القلب بسرور البطن؛ فدفنتُ كلَّ آلامهما في بعض قطع من
الحلواء؛ فطعما واستضحكا وطمعاً الحياةَ جديدة آمنة.
والطفل لا يعرف مستقبلاً ولا ماضياً، وما هو إلا حاضره.
فإن عييتَ بأمره فأوجِدْه ما يلهو به، فهذه هي سعادة الطفولة؛
ولقد سرَّهما من الأديب السكَّير الذي كان إلى جانبي أضعافَ
مأسرهما من الحلواء، بل كان زيادةً في حلاوتها؛ فحسباه يتعمدُ
بَسْطَهما وإيناسَهما بحركاته وبكلامه الذي يطن في السماواتِ
الزجاجية؛ فكانا يضحكان منه، وكلما تكلم أو أشار أو تحرك
أو أنكر عليهما، استخرج بذلك منهما مثلَ تغريد العصافير؛
فكانت كل الفائدة من سقوطه وضياع عقله أنه أضحك
طفليْن ... !

وقدَّرت في نفسي أنهما من هذا الشارع الذي نحن فيه، أو

من فضيلته في الطرق التي تخالطه أو تقاربه ؛ وقلت إن أهلها
على أثرهما ؛ فجعلت أَسْتَأْنِي وأَنْتَظِر ؛ وبينما نحن على ذلك ، إذ
ارتفع سوادٌ مقبل كأنه روحُ ليلةٍ مظلمةٍ تَغْشَى الطريقَ ؛ فتبينتُ
فإذا امرأةٌ تهفو كذات الجناحين ، وكأنها تنساق بقوةٍ تحترق
في داخلها ؛ ثم أخذتنا عيناها فإذا هي أمُّ الطفلين ، تبدو من
لحفتها واستطارتها لولديها كأنما تحاول أن تحتفظهما من بعيد بقوةٍ
قلبها ؛ وما عرفتُ أنها هي إلا بأن روحها كانت منتشرة على وجهها
ملبوسة في نظراتها إلى الصغيرين ؛ وكانت لها هيئةٌ هيئةُ أمٍّ^(١)
وُضعت الجنة تحت قدميها ، فترى في وجهها معاني ليست من
هذا العالم ، وليست من الجنة نفسها ؛ إذ تزيد على كل مسرات
الدنيا هَنَاءَ الاطمئنان السعيد المفاجئ الذي لا يكون في الحياة
إلا هُنَيْهَةً ثم ينقطع ، وتزيد على ما هناك هذه اللهفة اللذيذة
التي لا توجد إلا هنا على الأرض حينما تفجأ السعادةُ بعد
شقاء لا يُحتمل .

إن من لم ير أمًّا أشقى طفلها على الموت في حادثة أخذته
بغته ثم نهض سليماً معافى ، أو ضلَّ عنها مدة حتى يَبْسُت منه
ثم اهتدت إليه — لا يكون قد رأى شيئاً من سعادة الإنسانية

(١) هذا من تراكيبهم البليغة ، وهو تكرار تستعمل في إثارة النفس وتنبيهها فيقع
منها أى موقع . والكلمة الثانية تنصب إذا أريد بها الحدوث .

العالية النادرة التي لا تكون إلا في الأمهات خاصة ، ولا يشهدا
الناس إلا في ساعة حرجة تلبس فيها يد الله قلب الأم !

وهل الطفلان ^(١) لما أبصرا أمهما ، ونفضا أيديهما نفص
الأجنحة ؛ ثم أكبَّت هي عليهما بجسمها ومدامعها وقبلاتهما ،
والتحما بها التحام الجزء بكله واشتبهت الأذرع في الأذرع حتى
لا تفرق بين ثلاثهم في معاني الحب إلا بالكبير والصغير ؛
ورجعت معهما طفلة كأن تاريخها ابتداءً جديداً في ساعة من
الساعات الفاصلة التي يتحول عندها التاريخ .

وإذا كانت القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يُقلَّبها ،
فلقد كانت هذه القلوب الثلاثة في تلك اللحظة تنطق وجوهاً
بأنها في يد الله يهزها هزاً ... ولكم وددت لو أستطيع أن
أخلط بها قلبي المسكين في لَمَسَةٍ واحدة ليشعر ولو لحظة في
هذه الحياة أنه سما بروحه فوق العالم كله !

لو أصابك الهم الحبيب إذ تراه مهموماً متألماً . لذقت أحلى
أنواع الآلام السعيدة ؛ فكيف بك لو تبدل همُّه بغتة فأقبلت
عليك قبلاؤه وضحكاته تُزحزح عن قلبك ناموس الكتابة ؟
الحب ! ما الحب إلا لَهْفَةٌ تهدر هديرها في الدم ، وما خلقت

لهفة الحب أول ما خلقت إلا في قلب الأم على طفلها تَرَاهُ
وتحنو عليه، ولن يحفظها للعالم إلا هذا القلب نفسه . ولقد
يكون عمرُ الطفل يومين ، ولكن لهفة أمه عليه وحفظها إياه
حِفْظَ عَيْنِهَا ، تجعل له من الحب عمراً متجاوزاً يقاومُ به الأقدار
العادية عليه في مسارحها ؛ ولولا ذلك لَحَطَمَتْهُ هذه الأقدار كما
تَحَطَّمُ كُلُّ طفلٍ أهمله ذُووُ عِنَايَتِهِ^(١) ؛ فلهفة الأم على طفلها كأنها
قوة سِنِينَ عِدَدًا في جسم هذا الطفل ؛ ومن ثمَّ لم يكن الحب
الصحيح في أسمى مظاهره إِلَّا حُبُّ الْمَرْأَةِ لِبْنِ بَطْنِهَا^(٢) ، وإِنَّمَا يَسْمَى
غَرَامُ الْعَاشِقِينَ حُبًّا لِأَن فِي الْعَاشِقِ دَائِمًا مَعَ حَبِيبَتِهِ أَكْبَرَ مَعَانِي
الطِفُولَةِ ، وفي الْعَاشِقَةِ دَائِمًا مَعَ حَبِيبِهَا أَصْغَرَ مَعَانِي الْاُمُومَةِ ،
وما كان هذا الْغَرَامُ يُسَمَّى حُبًّا لَوْلَا ذَلِكَ ، وَلَوْلَا أَنَّ فِي
اللُّغَاتِ لُصُوصًا مِنَ الْاَلْفَاظِ تَسْرِقُ مَعَانِي غَيْرِهَا ...

حُبُّ الْأُمِّ فِي التَّسْمِيَةِ كَالشَّجَرَةِ : تُغْرَسُ مِنْ عَوْدٍ ضَعِيفٍ
ثُمَّ لَا تَزَالُ بِهَا الْفُصْرُلُ وَآثَارُهَا ، وَلَا تَرَالُ تَتِمَكَّنُ بِجَذْوِهَا
وَتُمْتَدُّ بِفُرْعِهَا ، حَتَّى تَسْكُتَ مِلَّ شَجَرَةٍ بَعْدَ أَنْ تُفْنِيَ عِدَادَ أَوْرَاقِهَا
لِيَالِيٍّ وَأَيَّامًا .

وَحُبُّ الْعَاشِقِينَ كَالثَّمَرَةِ : مَا أَسْرَعَ مَا تَنْبَتَ وَمَا أَسْرَعَ

(١) أهله والقائمون بأمره

(٢) أولادها

ما تنضج وما أسرع ما تُقطف ، ولكنها تُنسى الشفاه التي تذوقها
ذلك التاريخ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء في
الشجرة القائمة

لالذة في الشجرة ، ولكنها مع ذلك هي الباقية ، وهي
المنتجة ؛ ولا بقاء للثمرة ، ولكنها على ذلك هي الحلوة ، وهي
الليذة ، وهي المنفردة باسمها .

وهكذا الرجل بم أغواه الشيطان في السماء بثمره فَنسى
الله حيناً ، ويُغويه الحب في الأرض بثمره أخرى فينسى معها
الأم أحياناً !



وذهبت المرأة بالصغيرين بعد أن شهدت منها ومنهما مواقع
رحمة الله في القوى المسكينة التي لم تجبها المسكنة إلا من كونها
أطهر القوى وألطفها ؛ وانفجر قلب آلاما وسروراً ورحمة في
ساعة واحدة ، ثم كاد ينفجر آخر الأمر من الضحك ... حين
أراد الطفلان أخذ الأديب الكبيرِ معهما لأنه مضحك ...

افضل السابغ

الشيخ على

وكأنما أنظر الآن في قلب رجل لا في وجهه ، إذ تهلّل
على السحاب وجهه « الشيخ على » شيخ المساكين ^(١)
أراه كما كنتُ أعرفه : ضاحكاً غير الضحك الذي يلبس
وجوه الناس ، فلا يضحك لشيء إنساني ، بل ما هو إلا أن تراه
قد تهلّل فرفع وجهه إلى السماء وأرسل من فمه مثل نور التسميح
في إشراق جميل ، حتى لقد كان يُخيّل إلى حين أبصره على تلك
الهيئة أنه لا يضحك ، ولكن قلبه يرتعش بعصّلات وجهه !

لو أراد الله بالناس خيراً لوضع في أبصارهم أشعة تلبّث في
أطواء القلوب فتعرف ألوان العواطف وتميزها لوناً من لون ،
ولكنه جعل الوجه غطاء على معاني القلب ، ثم سلط الفكر
على معاني الوجه ومعارفه يصور فيها ما شاء مما له أصل في

(١) وضعنا كتاب (المساكين) على لسان هذا الرجل ليتعزى به أهل البؤس وأحلاف
الهموم ، وقد أفردنا لوصفه باباً في ذلك الكتاب ، وحسبه أكثر القراء رجلاً مخترعاً كرجال
الروايات ، ولكنّه كان رجلاً أشبه في حياته برواية ، وقد توفي في سنة ١٩١٩ ، وظهرت
بموته كرامات عجيبة شهدها الناس بأعينهم ، ولم ينعه أحد ولا كان أحد يحفل به ، ومع ذلك
كانت له جنازة لم يعرف مثلها في بلدته وأحواؤها ، كأنما خرجت الحياة نفسها تشيع أضرحي
لتجعله أكبرهم !

الحس وما لا أصل له ، حتى لِيَخْتَبِيُ الإنسان عن الإنسان وهو
مكشوف لعينيه ... وإذا كان الله سبحانه قد أوجد الخير والشر
صريحين ، فقد أوجد الإنسانُ ثالثاً لهما ، وهو تلبیسُ أحدهما
بالآخر ؛ وأراد الخالق ذلك وَيَسِّرَهُ للإنسان ، فجعل فيه آلة
واحدة للصدق ، وهى القلب ؛ وآلة للالكذب : وجهه
ولسانه !...



كان « الشيخ على » يشبه إنسانية قائمة بغير إنسانها ، على
حين ترى أكثر الناس كأنه إنسان قائم بغير إنسانيته ^(١) وكانت
الدنيا كأنما نَسِيتْ أنه فيها ، فتركت له روحه صافية منطلقة
تَتَطَعَّمُ الحياة غير مُسْتَقَرَّة في شيء ، كما يتطعم النسيم راحته من
ورق الزهر فهو يَتَسَحَّبُ عليه ولا يستقر فيه ولو أنه ورق الزهر
وما زالت روح هذا الرجل منى منذ عرفته كأنها نَضَّاحَةٌ
عِطْر ^(٢) تَمُجُّ رَشَائِشَها على حياتي رَوْحاً وَعَميراً ونَدَى ؛ وكأن
الرجل طفل عزيز من أطفال قلبي يملأ ما حوله ابتساماً وطفولة

(١) أكثر من ترى من الناس لهم حظوظ الانسان ولا إنسانية فيهم ؛ والشيخ على لم

يكن له من حظ الانسان إلا الجرعة واللحمة وغضة العين !

(٢) رشاشة العطر ، وهى ترجمة لكلمة (Vaporisateur) وبسميها العامة

« بخيخة العطر »

ورثة ، واو أن أحداً خُلق من عيني الطفل الضاحكتين لكان هو (الشيخ على) رحمه الله ؛ على أنه كان رجلاً من سُوْسِه القوة ، معصوباً مُتَكَدِّساً ^(١) ، يَلَأُ جِلْدَه كأنه جِذْلٌ من أجْذال الشجر ^(٢)



... وانقبضت نفسى انقباضة شديدة ، إذ تغير الرجل في خيالى فظفر إلى نظرة ينقدح منها شررُ الغيظ ، فلو أبصرت عيناك طائراً ضعيفاً أراغه أسرٌ فاستطرده في نواحي الجو هكذا وهكذا ^(٣) ، ثم أهوى له بهخالبه ، ثم سدّد إليه نظرة غرّزت هذه المخالب وانفجرت بآلام لحمه ودمه — فاعلم أن تلك هى كنظرة الشيخ إلى ، ولقد تبعثرت لها شياطينُ نفسى فانطلقت يحاول كل شيطان منها مهرباً ، وكانت تُوسوس فى صدرى أن أستمّد من روح الشيخ قولة فى الحب ، هذا الحب الذى مهما اعتبرته لم تجده إلا كإحياء الخيالات بقتل حقائقها .
... ثم مالبت أن استضحك وأطلق لى نفسى ، وجاشت

(١) المتكدس : الممتلئ عضلاً ، والمعصوب : الشديد طلى الجسم بعضه على بعض ، ومن سوسه : أى من أصله وطبيعته ، أو كما يقول العامة (من عوده)

(٢) ما عظم من أصولها

(٣) أى فنا وهناك

عيناه بنظراتهما الحكيمة ، فقلت : ويحك يا نفس ! إن عين
 الشيخ ترى من الجمال غير ما ترى ، ثم تعلم علمها مما نظرت
 فيه ، ثم تقدّره على حساب ما تعلم منه ؛ فما يدريك لعلّ هذا
 الرجل الروحاني لا يرى إلا ما وراء تلك البشّة الجميلة التي تكسو
 وجوه النساء الجميلات ، كما نبصر نحن من وجوه الموتى وقد
 تأكل جلودها وتناثر لحها وبرزت عظام كسائر العظم من كل
 حيوان ؛ فلا موضعُ قبلة ، ولا سحر نظرة ، ولا إشراق بسمّة ،
 وما هو إلا تركيب من العظم صنع هذه الصنعة تيسيراً لما
 خلق له !... ولعله يا نفس لو حشر الله لعينيك أجمل الجميلات
 في صعيد واحد وحشر معهن إناث البهائم صنفاً صنفاً ، ثم نزع
 عن تلك الوجوه كلّها ذلك الطراز من الجلد وما وراءه من اللحم مُزعة
 بعد مزرعة ^(١) ، حتى لا يبقى إلا الوضع في بناء العظام وهندستها ؛
 فما يدريك لعلّ أجمل الجمال عندنا هنا لا يكون حينئذ إلا
 أقبّح القبح هناك ؟

✕ أفن جليدة على وجه امرأة يحىء الشعر والجنون معاً ،
 ويحتمعان في هذا الخيال الذي يسمى الحب ، ويستزلان
 معاني التقديس من أعلى السموات إلى عين تلحظ لحظة وشفّة
 تبسم بسمّة ؟

(١) هي القطعة من اللحم

إنه القلم الإلهي المبدع الحكيم هو الذي صَوَّر وَلَوَّن
وافتن ماشاء ؛ فإن رزقت امرأة جلدة جميلة مُشرقة كأنما تجري
فيها الشمس ، وألبست أخرى جلدة قبيحة سَفْعاء ^(١) تجول
فيها رهبة الظلمة ؛ فكلتاها صورة من صنع الله ، وكلتاها تُظهر
لوناً من ألوان الحكمة ، وكلتاها جاءت لمعنى ، وكلتاها بعد
غِشاء زائل على وضع ثابت لا يختلف في هذه ولا في تلك :
وضع الحقيقة الجسيمة التي تحمل الحياة بأدواتها الكثيرة . والحياة
لا تعرف البشرة إلا غطاء على ماوراءها ، أسود أو أبيض ،
وكان من لون المرمر أو من هيئة الطين !

ولو أن كل وجه في نساء الدنيا خلق دميماً نافرّاً على أشبع
مانتصوره من القبح ، لكان كل نساء الدنيا جميلات ؛ إذ يألف
الطبعُ الإنسانى تلك الصورة الواحدة ، ويتقرّر بها الذوق في
الجمال ، وتستمرّ بها العادة ، فلا يستبين وجه من وجه آخر في
صفة ، ولا يخالف مذهب مذهباً في حالة

ولكن هذا الإنسان كُتب عليه الشقاء ، نُفلق وُخلق معه
ما يُطغيه وما يَسْتَفِزُّه وما يُخرجه عن طَوْقه ؛ كما خُلق له ما يُزهد
وما يطمئن به وما يحصره في إنسانيته . فالجماليات والقبيحات كلهن
سواء في أنهن نساء هذه الإنسانية ، لا تقصّر في ذلك واحدة

(١) السفع : سواد مشرب بحمرة ، والمراد به هنا فساد لون الوجه وقبحه وبشاعته

الفرق بين الجميد
والقبيح

عن واحدة ، وإنما يتفاوتن في أسباب الشقاء الإنساني الذي يبتلى
الرجل بالمرأة ويمتحن المرأة بالرجل .

ولو سما عقل الرجل إلى الغاية العليا من كماله ، لرأى المرأة
الجميلة الفاتنة في نصف جمال المرأة القيحة ، ولبانت الواحدة
عنده من الأخرى بأن الدمية مهيأة في نفسها لمعالي الأخلاق ،
والجميلة مهيأة لسفسافها ^(١) ، ولرأى مع هذه من بعض طباعها
ونزغاتها شراً مما تقدم بها من جمال وجهها ، ومع تلك من أكثر
طباعها وصفاتها خيراً مما قَصُرَ بها من حسن صورتها

يَبْدُ أن من شِقة الطبع الإنساني أنه سخط القبح فأحاله
فساداً ، وعَبَدَ الجمال فأحاله فساداً من نوع آخر ؛ إذ كان في
نفرته وحبّه لا يعتبر المنافع والحقائق ، ولكن الأهواء والشهوات .
والمنفعة والحقيقة كلتاهما لا تكون إلا في قيودها ، أما الأهواء
والشهوات فهي دائماً لا تقع إلا مُتَخَطِّيةً حدود العقل ، إما
إلى النقص وإما إلى الزيادة ، ولا تُغْرِى بشيء إلا أوقعت
به السوء ؛ إذ لا يستوى في القصد ما خرج عن الحقيقة وما هو
مقيّد بالحقيقة .



(١) السفساف : الدق . وأصله ما يطير من الغبار إذا أثير ؛ ومن الدقيق إذا نخل
لأنه أهونهما ولا فائدة منه

كان هذا وحى (الشيخ على) في نفسى ، غير أنى رددته عليه
وأزلى شيطان الحب مرة أخرى ، فقلت : أفترى الشوهاء على
مابها بما ركع للدهر وسجد^(١) ، ثم تلك المرأة التى سُمج تركيبها
فتجاهتها العيون ، ثم الأخرى التى قُمعت فى بيتها تختبئ فيه من
القبج^(٢) فصارت سرّاً فى صدر الحيطان ؛ ثم تلك التى تلوح فى
النساء كالسطر المضرب عليه أفسده الخطأ ، ثم المهزولة التى أدبر
جسمها^(٣) وتقبضت أعضاؤها وأصبحت جلدة تمشى وتسكّم ...
أفترى هؤلاء أو إحداهن كتلك الغانية المتشكلة فى ألوان
التياب كأنما تلبس بدنّها الجميل بدنّاً معنوياً يدل على معانيه ،
أو الأخرى التى تظهر فى جمالها الفتيان عاطلة من كل حلية ومع
ذلك ترف على حسنّها روح الياقوت والألماس والؤلؤ مما عليها
من البريق والشعاع ، أو المطوية الممشوقة المسترسلة كأنها فى
قوامها ووجهها غصنُ الجمال وزهرته ، أو الحسناء اللعوب
المزاحة كأنما اجتمعت طباعها من نور القمر أطلّ فى ليلة من

(١) كناية عن أسباب فقرها من الجمال وسقوطها فيه ، ويقال : ركع للدهر وسجد ،
إذا كان فقيراً ساقطاً ليس وراء ما به من الذل

(٢) هى القمعة (بوزن ملكة) : وجمعها قمعات (كالكلمات) : من تستر لما ابتليت به
من قبح الصورة

(٣) كاد يفنها الهزال ، وتسمى المصوفة

ليالى الربيع يداعب أوراق الورد النائمة ، أو ... أو تلك
ياشيخ على ... ؟

(قال الشيخ على) فياويلك ! إني والله بك من رجل لخبير ^(١)

أفمن أجل واحدة ... ؟ أما إنه لعل الذى جعلها حقاً عندك هو
الذى يجعلها باطلا عند سواك ، ولعله ما حسنها فى عينك إلا
أن طبعاً من الجد فيك استملح طبعاً من الهزل فيها كما ترى مغنى
مكدوداً فى إنسان يستروح إلى نقيضه فى إنسان آخر . ولعل
من أمتع اللذات وأبهجها لقلب المهوم أن يتصور فى همه من
يعرفه طروباً فرحاً ، وإن كان كلا الرجلين لا يسكن لعشرة
الآخر لو تعاشرا واختلطاً . وهذه القلوب لا تُوقى من مأى هو
أدق وأخفى من توهم ما فيه اللذة ؛ فإن النفس ترجع عند ذلك
بكل حقائقها إلى نوع واحد من الوهم ، ينصرف بها إلى تمثل
هذه اللذة التى استشرفت لها وطمعت فيها ، فإذا طعمها فى الدم
يهيج له سُعار ^(٢) الجوع العصبى ... وما هى السرقة مثلاً إلا أن
يضع اللص عينه على المال أو المتاع ، ويتذوق طعم اليُسْر
والفائدة ، فتُجَنُّ أعصابه جنون الحاجة ، فلا يرعوى إلى شيء

(١) أى خبير بك وبما تبطن وتخفى

(٢) ما يأخذ من الجوع الشديد شبه الجنون ، وحالة الأعصاب متى احتاجت لأمر
لا تكون إلا هكذا ، وبخاصة إن كان هذا الأمر من الحب

من رأى يزجره أو يمنعه أو يكفه ، ويكون في الحقيقة سارقاً من قبل أن يسرق ؛ وكذلك يكون الفاسق متى نظر إلى المرأة واشتهاها ونبه معانيها في نفسه . وقل مثل هذا في كل من طار قلبه أو طار صوابه .

أله عن وهمك يابني ، وضع الأمر على قاعدته ، وسدد نظرك إلى حقيقته ، ودعني من حبل الباطل الذي تجر فيه شيطان هواك أو يحرك هو فيه . وما تتكلم عن اثنين من الخليفة : أنت وهي ؛ ولو أن الأمر قد انحصر فيكما وفيت بالحب فيها لكانت هي الكون كله ، ولو فئت هي فيك لكنت أنت ذلك الكون وهذا (حرسك الله) موضع النقص في النفوس العاشقة : إذ تنقطع إحدى نفسيين من العالم إلى نفسها الأخرى ؛ وهو نقص أشبه بجنون المجانين ، بل هو متم له ؛ فإنما ذهاب العقل في المجنون المختبل هو نصف الجنون الإنساني ، أما النصف الآخر فهو مجرد العقل في العاشق المتدلّ

نصف الجنون في العاشق الذي يتجرد من الناس إلا من أحب ، ونصفه في المعتوه الذي يتجرد من الزمن إلا الحاضر ! إنه ليس للمجنون عند نفسه ماض ولا مستقبل ؛ إذ لا يأمل هذا ولا يذكر ذاك ؛ وكل سعادة نفسه في هذا النسيان الذي طمس عليها وتركها كأنما تعيش في غير عمرها ، بل في كل أعمار

الإنسانية ، بل بغير عمر ؛ وكذلك ليس للعاشق مع الحبيب شخص آخر من مضي ومن يأتي ، مادام الحب قائماً ؛ فالحبيب هو الحبيب ، وكل الناس بعده أدوات ؛ وشخص واحد هو الألف واللام والحاء والباء ، والناس جميعاً نقطة صغيرة ملقاة تحت الباء فقط ... !

(قال الشيخ علي) : ثم يبرأ المجنون ويثوب إليه عقله فيعرف أنه كان مجنوناً ؛ ويُبغض المحبُّ أو يسلو ويبرأ من وهمه في تلك المرأة فلا يرى إلا أنه كان بها مجنوناً ؛ أفلا يكفي هذا (ويحك) في الدلالة على أن الحب والمجنون من أم واحدة وإن اختلف أبواهما ؟ ... وأن رأى العاشق في كل النساء كراي المجنون في كل الناس : لا يجوز أن نأخذ بواحد منهما إلا إذا أخذنا بالآخر وأقررناه في باب الصواب والعقل ؛ إذ كلاهما حاصل من حالة متغيرة فانقلبت اعترف صاحبها عليها بالمجنون ، وإن كانت إحدى الحالتين في طبيعتها ووصفها غير الأخرى ؟ وويله وصفاً من العاشق لو كان مع صاحبه رأى ! وويله (١) رأياً من المجنون لو كان مع صاحبه عقل !

(١) كلمة يقال لتفخيم شأن الأمر ، تشعر بالذم ولا يريدونه ، وأصلها : ويل أمه ، ولكنهم يسقطون الهمزة ، ومن أجل ذلك رسمت كلمة واحدة ، وترسم كلمتين إذا أمن الخطأ فيها



(قال الشيخ علي) : سئل الخلاج ^(١) وهو مصلوب يعاني غصّة الموت . ما التصوف ؟ فقال لسائلة : أهوَنُهُ ماترى ... ، فهذا رجل يموت فى سبيل حقيقة تقتله بغموضها السماوى العجيب ؛ وعلى أنها قد دَقَّت المساميرَ فى أطرافه وجمعت لموته آلامَ الحياة كلها ، وأنبقت فى كبده من وخزات الجوع شجرةً من الشوك ، وأطلقت فى عروقه من لذعات العطش لهيباً من النار ، وتركته على صليبه محدوداً تنساقط نفسه كما يُنشر الثوب الذى بلى وانسحق فهو يتمزق من كل نواحيه — على هذا البلاء كله ، لم تتغير الحقيقة فى رأى الرجل ، ولا فسد موضعها فى نفسه ؛ ولا رأى ما يكرهه الناس

(٢) هو الحسين بن منصور الخلاج الصوفى الشهير ، اختلف العلماء فيه اختلافاً كبيراً ، ورمى بالكفر ؛ وقتل سنة ٣٠٩ للهجرة ، وهو فيما قرأنا عنه من أكبر رجال الحقيقة ، ومازال هذا التصوف كالحقيقة نفسها : هي موضع المعرفة وموضع الجهل معا . ومن أبدع ما قرأناه فى ذلك أن أصحاب الشيخ عثمان القرشى ، من أكبر علماء مصر فى علوم الحقيقة والشريعة ، قالوا له يوما : مالك لا تحدثنا بشيء من الحقائق ؟ فسألم : كم أصحاب اليوم ؟ قالوا : ستمائة ، فقال : انتخبوا منهم مائة ، فانتخبهم ، فقال : اختاروا من هؤلاء عشرين ، فاختارهم ، فقال استخلصوا من العشرين أربعة ، فكان الأربعة أئمة الجماعة : ابن القسطلانى ، وأبا الطاهر ، وابن الصابونى ، وأبا عبد الله القرطبي . قالوا : فلما انتهى الأمر على ذلك ، قال الشيخ رحمه الله : لو تكلمت بكلمة من الحقائق على رموس الأشهاد لكان أول من يقتل بقتلى هؤلاء الأربعة !

فتأمل غور هذا البحر ، فما أبعد غورا ، ونوفى القرنى سنة ٥٦٤ هـ

من الألم مكروها في ذاته فيميل عنه ولا مايجبونه من اللذة
محبوباً فيميل إليه ، ولا تَسْخَبُ قلبه حركةً واحدة في السخط
على الحكمة الإلهية فانتَقَصَها برأى أو اغْتَمَزَ فيها بكلمة ؛ بل نظر
نظرة الحكيم من وراء الحدِّ الإنساني المنتهى فيه ؛ إلى مايبداً
عنده الحدُّ الإلهي الذي لايتهى ، ورجع آخره إلى أوله ، فكأنما
يقول بلسان حكمته فيما نزلَ به : اللهمَّ إنك بدأني طفلاً غيراً
جعلته فَقْدَانُ العقل لايملك مع أحد إلا صياحه ؛ فخذني إليك
طفلاً عاقلاً جعله العقل لايملك مع أحد ولا صياحه !

واذكر الطفلَ يابني ، فُرْبَ مُعْضَلَةٍ من أمور هذه الدنيا يحار
الناس في آخرها وهي محلولة من أولها . وما هؤلاء الأطفال إلا
الأساتذة الذين يعلموننا وهم يتعلمون منا ؛ غير أننا لا نأخذ
عنهم ؛ فلا نَصْلُحْ ؛ ويأخذون عنا ؛ فيفْسُدون ... أفرأيت
ولَدَ الشَّوْهَاءِ تغرف عيناها في كلِّ ماطلعت عليه الشمس أجمل
من وجه أمه ، أو يرى طائلاً في وجه سواها ، أو يحنُّ إلى غير
طلعتها ، أو يسكنُ إلى صدر غير صدرها ، حتى كأن الله لم يخلق وجهه
حبيب لِقُبَلَاتِ مُحَبَّةٍ إلا وجهها هي لقبالاته ؟ (*)

إنه في ذلك ينظر من ناحيتين : الأولى ناحية صفاته هو ؛
فإن القلب إذا لم يكن هيمياً منعكساً أشرق صفاؤه فيما حوله

فلا يرى إلا خيراً ، وأبست المرئى صفة الرأى فلا ينظر إلا جمالا ، واتصل الشعور الطيب الرقيق الجميل بين نظر النفس وبين ذات النفس ، كما يصل الشعاع الذى يُلْقَى على حائط من المصباح بين هذا الحائط وبين المصباح ، فيُعْشِيه النور وإن كان الحائط نفسه من الطين ... فإذا كان القلب بهيمياً زائغاً عن الإنسانية إلى حيوانيته ؛ استفاضت ظلمته وشهواته على ماحوله ، فإن يشهد من صفات الجمال شيئاً ، بل يرى فى كل شيء من صفات نفسه هو ؛ حتى ليكون الوجود كله فى عين بعض الناس كما يكون الطعام كله فى فم المريض (١). ومثل هذا يعشق أجمل النساء فلا يرى فيها جمالا ألبتة ، وإن هو خدع نفسه فى ذلك واختدع الناس ؛ وإنما يرى شهوات ؛ شهوات جميلة ليس غير !

أما القلب البهيمى غير المنعكس — وهو ذاك الذى تحمله البهائم ، فلا يحتفل فيه عقل ولا يحتمد فيه خيال ، وما هو إلا أن ينصب الحيوان به على محض المنفعة ؛ لأنه عامل فى الطبيعة ، يُعَدُّ من عمالها لامن شعرائها — فليس عنده جمال يقع فى ظاهر الروح ، وآخر يقع فى باطنها ، وثالث متوهم لا يقع ولا يمتنع أن يقع (٢) ؛ وليس يعرف من معنى القبح إلا

(١) رأينا هذه الكلمة مروية للآمون ، وهى : إن الجمال إذا وقع فى ظاهر الروح كان صباحة ، وإذا وقع فى باطنها كان فصاحة . فردنا عليها ما هو فوقهما مما لا يعرف إلا بالتخيل ولا حقيقة له فى الواقع

أن تكون الأثني قد طاش بها المرض فما تستقل إعياء وضعفا .
وبذلك سلبت إناث البهائم من شر كثير يملأ لغة الحياة النسائية
بمعانيه ، وتجمعه كلتان : الجمال والقبح !

والناحية الأخرى التي ينظر منها الطفل لأمه الدميمة الشهواء ،
ناحية الصفات الإلهية ؛ فإن الحب الصحيح الذي يمكن أن يسمى حبا ،
لا يكون فيما ترى من لون وشكل وتركيب وتناسق ، وغيرها
كما يظهر البشرية على أتمها وأحسنها في الشخص المحبوب كما يظن
الناس خطأ ؛ بل هو في عكس ذلك ، أى فيما يُخفى البشرية
بمحاسنها وعبوبها جميعا ، ويُظهر في أمكنتها خصائص الروح المحبوبة
وحدها ؛ فمن ثمَّ يبدو لك شخص المحبوب على أى أشكاله وهياته
كأنه تمثال سماوى وُضع لروحك خاصة ، فهو مجبول من مادة
واحدة ، هى مادة الفتنة ، ولو كان فى أعين الناس كافة تمثال
الأرض السفلى يُصور كل ما تشئت فيها من القبح !

فإذا لم تظهر لك خصائص روح المرأة ظهوراً يستفيض
على وجهها وجسمها ويجعل كلَّ شئ فيها ذا معنى منه ، وكل
معنى منه ذا معنى فيك ، فما أنت من حبها فى شئ ولو ذهبت
من جمالها بعقول الناس ، ولا هى عندك من الجمال فى شئ ولو
كانت فى النساء كليلة البدر فى الليالى ؛ ومن أجل ذلك لا يخلو
الحب من بعض معانى الوحى ، ولا تخلو الحبيبة من بعض المادة

الملائكية^(١) في النفس التي تعشقها ، وهل مَلَكُ الوحي إلا قوة
المزج السامى في نفوس الأنبياء ، وهل رُوحُ الحبيبة إلا على
قَدَرٍ من مثل هذه القوة في نفس مجها ؟ ... ولعل هذا يفسر لك
سراً من أسرار الاحتراق في بعض الأرواح العاشقة التي تيمها
الحب ؛ فإن تلك القوة المزجية متى أفرطت على نفس رقيقة
حساسة ، أذابتها واشتعلت فيها فأكلتها أكل النار للهشيم ، وتركتها
تحترق أسرع ماتحترق لتتطفئ أسرع ماتتطفئ !



(قال الشيخ على) : تلك هي الحقيقة يابتي ، فلن يأتى لكائن
من كان أن يقسم النساء إلى جميلات وقيحات ، إلا إذا طوى
في ذلك معنى القسمة إلى شهوات جميلة وشهوات قبيحة ؛ ومتى
انتهينا إلى هذا فقد خرجنا إلى المخاطبة بلغة لاهى من لغة البهائم
ولا هى من لغة الإنسانية .

أرأيت قط ألفاظ الجمال والفصح تشيع في أمة من الأمم

(١) نسبنا إلى الجمع للخفة ، وفرقا بين هذه وبين النسبة إلى الملك (بكسر اللام) ،
فانها ملكية (بفتح اللام)

(قلت) : وقد أقر الجمع الملكى للغة العربية هذا الاختيار ، فصار النسب إلى الجمع في
مثل هذا قاعدة من بعد

وتعلو بالأعين عن النساء وتنزل وتمتد^(١) بها وتقبض ، إلا
أن تكون أمةً ضعيفة القوة قد اختلت أجسامها ، أو ضعيفة
الدين قد اختلت أرواحها ؟

انكشف القمر ذات ليلة لرجل اسمه « من عباد الله
المقربين »^(٢) ، فإذا البدر أسود كالخبر ، وإذا مكتوبٌ في وسطه
بالنور « أنا وحدي » ؛ فالقمر نفسه لم يمنعه كل ضياء الشمس
عليه أن يسود في عين الرجل الكامل الذي ينظر لروحه ، فما
الذي يمنع من ينظر لروحه وخصائصها أن تصير المرأة القبيحة
في عينه كالقمر الأزهر ؟



في البدر ظهرت كلمة الألوهية « أنا وحدي »
وفي وجه الحسناء تقرأ كلمة الألوهية « أنا وحدي »
فهل يمكن أن تقع الدمية من الحسناء أقبح مايقعُ ظلامُ
القمر من نوره ، فلا تكون في وجهها هي أيضاً كلمة

(١) يقال : علت العين عن كذا : أى نبت عنه نفوراً فلم تلتصق به ، فاستعملنا منها
(نزلت) كما ترى

(٢) هذا تهكم من الشيخ على ، يريد به طاشة فتياتنا وفتياتنا ممن يرون الدين شيئاً
قدماً في لغة قديمة ونفوس قديمة ومذهب قديم . فليهنأهم البلاء الجديد الذى حل من
أنفسهم محل الدين ، فجعل الرجل بلاء على المرأة إن تزوج بها أو أهملها ، والمرأة بلاء
على الرجل إن كانت له أول نفسها ، والوطن بينهما يقول ما تقول جهنم لأهلها : « لا تدعوا
اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً » !

الالوهية « أنا وحدي » ؟

لم يبق في البدر مع الحكمة العليا شيء يُسمَّى الجمال ، ولا
المرأة الحسناء يكون فيها شيء أجمل من القمر ؛ فهي مثله ليس
فيها مع تلك الحكمة شيء اسمه الجمال ؛ أفيمكن أن يكون مع
الحكمة نفسها في وجه القبيحة شيء اسمه القبح ؟

القمر طالع مُشرق كما كان
والجميلة الحسناء لا تزال فاتنة
والدميمة ظاهرة كما هي
لم ينقص السكون من ثلاثها شيء
ولكن أين عين الرجل الكامل ؟

الفصل الثامن

الشيخ أحمد ^(١)

والساعة أرى سحابي أصفى ما تمثّل لي وأرقه ، كالسما في
صبيحة سارية ^(٢) إذا غمّ لها الليل وأصبحت لابسة حريرها من
شفق الصبح الأحمر ؛ وأراني أنظر إليه وأهتف له وأستشرق
في ضوءه ، كالطائر لا يسعه جلد ، مراحاً وتقلباً وحزينا متى أصبح
من الليلة الممطرة إصباح الشمس ، بعد أن أباته المطر بيته
كانها في عس السحاب .

وأشرق عليه صديقي هذا ؛ ولا ومصرف القلوب ^(٣) ، إن
ذكرته منذ لحق بربه إلا أخذني من الحنين إليه مالا يكون مثله
لصديق ميت ، بل لحبيب هاجر يشعر بموت الأيام كيف يكون
كانت صحبته أياى من أطراف الطفولة الى آخر الشباب إلى
تخوم الكهولة ، وهى أيام شبع العمر ، لا يطعم فيها من شيء
إلا طعم من لذة ، وما بعدها من تقاصر الحياة واختلالها إلا

(١) هو الأستاذ المرحوم الشيخ أحمد الرافي ابن عم الكاتب وصديق نشأته ورفيق
شبابه ، والكاتب خال أولاده ، ذهب (رحمه الله) بقضى فريضة الحج فأبضى إلى ربه
من هناك ودفن بمكة

(٢) صبح ليلة فيها مطر ، والسارية السحابة تمطر ليلا

(٣) هذا قسم ، وكان أكثر ما يقسم به النبي صلى الله عليه وسلم

كأيام سوء الهضم ... !

إذا كان في امرئ من الناس باق بعد شبابه ، فما أشبه هذا
الباقى فى جانب ما قبله بنواة الثمرة الحلوة من لبابها : تنتهى فيما
تأكل إلى النواة ، ولكن بعد أن يكون أطيب ما فى الثمرة قد
انتهى ؛ وتفضى مما ينصرف فى الريق - لاوة ويسيل فى الحلق لذة
إلى بقية من الخشب رطبه أو يابس ؛ لو كانت النواة من الذهب
مارجعت لك من ثمرتها رجعة (١) .

يا أيام الشباب ! أنت وحدك نور الحياة ؛ لأنك منذ الفجر ،
وأنت وحدك نهار العمر ؛ لأنك إلى أن تصفر الشمس ، وليس
وراءك إلا كآبة الليل تتقدم ليلها باسمه فى شفق المغرب !
يا أيام الصبي ! أنت وحدك الحب ؛ لأن فيك ما فى عيون
الحبيبات ، أشخاص روحية ظاهرة بمعانيها الفتانة ، فهى تلقى أشعة
الجمال على كل ما تنظر إليه

يا أيام الرجولة الأولى ! إن فى زمنك وحده تحل السعادة
فى العقل ، إذ يكون العقل فى عهدك ما يكون الطفل فى عهده
لغته تجرى من معانى الدواعى والابتسام والضحك ، ولا يستدير
به إلا الأفواه الحبيبة التى تقبله أكثر مما تزجره ؛ وحتى لو
ضرب لكان الضرب سبباً من أسباب تقييله فيما بعد ... !

(١) الرجعة : ما استرده مما فات

يا أيام الشباب ! أنت وحدك العمر ؛ ومن بعد الشباب كل
شيء يكون فنيه من الماضي فعلٌ مستتر تقديره كان !

يرحمك الله يا صديقي الكريم ؛ تركتنا مُصْعِداً إلى الله في
سُلم كانت الأولى من درجاتها عتبةً هذا البيت في مصر ،
وكانت الأخرى تلك العتبة الطاهرة من بيت الله في مكة
وذهبت عنا وما علمنا أنك طائرٌ يُعْطَى تحت ريشه سرٌّ
الجازية العليا

واسودعتنا الله واستودعناك فاشتبكت دموعٌ في دموع ، وما
حسبنا أن أرواحنا تقيم من ذلك مَناحتها قبل الفراق الأبدى .
وخاطبتناك عند البين وخاطبتنا ، وما عرفنا أن السماء كانت
وقتيئذٍ تكلم الأرض من شفقتك بألفاظ لها ما بعدها .

ونظرت إلينا طويلاً تلك النظرة التي لا تكون إلا من
يعرف حتى لا ينكر شيئاً ، أو من ينكر حتى لا يعرف شيئاً ،
فإذا أنت تنظر من أعماق الأزل في تراب هذا العالم ونحن لا ندرى
وسألنا الله أن يرَدِّك علينا أيها العزيز ، فأثبت لنا أنك من
أعز ما في الحياة حتى سقط دونك الأمل فلا يتملك إلا
الفكر وحده .

وذهبت إلى بيت الله متجرداً من الدنيا ليس لك منها إلا
جسمك ، لِتَخَفَ إلى محبته ورضاه ؛ فلما شاهدت التجلي
الأعلى تجردت من جسمك أيضاً واتصلت بنوره سبحانه وتعالى
فلقد خلعت الدنيا مرتين ، ومات بعضك في مصر وباقيك في
الحجاز ، وخلصت روحك إلى ربها كما تخلص الجوهر صافية
متألئة بعد استخراجها من معدنها مرة وصقلها للرواق
مرة أخرى .

وأبى الله لروحك الطيبة إلا أن تمر في بيته قبل أن تمر إليه
فتسبح في نور الملائكة ، وتنسم ناحية مهبا وهي تصعد أو
تنزل بالرحمة على الحجيح ^(١) وتستضيء بتلك الشعلة القدسية
التي أضاءت في الكعبة من وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
ثم من سرائر أصحابه الطيبين ، ولا يزال ضوءها هناك كضوء
الكوكب ملتمعاً في سواد الحجر الأسود .



واختار الله لك بعد إذ انغمست في نوره أن تصعد إليه فلا
ترجع من ذلك النور الأزلي إلى ظلام الدنيا ، ولا تعود من
النَّبع السماوي إلى حَمأة الأرض ، ولا تحل في بيت من بيوت
الخلق بعد بيته هو عز وجل !

واختار لك ماعنده على ما عندنا ~~فما~~ في أيام هذه الحياة
 إلا غبارٌ يُثور على غبار ، ولا في الناس إلا أحجارٌ تتحطم
 على أحجار ، ولا في أخلاقهم إلا أقدار تنصب على أقدار ،
 ولا بين الحوادث والناس إلا كما بين الرياح والقفار ، ولا
 بين الإخوان والإخوان إلا كما تجمع الأصفار من الأصفار...
 واختارك الله إذ اختار لك فما تركت (يرحمك الله) إلا
 علانيةً مشهودة ، وسريرةً محمودة ، وآثاراً في الصالحات معدودة
 وأفراحاً في شجرة الحياة كصغار الطير إذا رأت أباهما
 فارق عُودَه !

يرحمك الله إن أول ما يشهد لك عند الله كعبته : إذ كانت
 آخر ما عرفت من الدنيا ؛ وإن الذي يدخل السماء من باب
 الكعبة لحقيق أن تضع له الملائكة أجنتها سلاماً وتحيية ؛
 فهنيئاً لك إذ فتحت باب السماء بلك القبة الزكية التي وضعتها
 على أستار الكعبة ؛ وهنيئاً لك إذ ذهبت لتقول : « لبيك
 اللهم ليك » فانطلقت روحك الطاهرة فيها ، وكانت أول
 كلمتك في السماء ! ... وهنيئاً لك ثم هنيئاً إذ قطعت البحر
 والبر إلى خير بقاع الدنيا لتقول لله من هناك : ها أنا يا الهي .



إن الحقيقة لا تسأل كيف يحيي الحي ، ولكن كيف يموت

ولا تتعَرَّف ما قُدرتُه على الاقامة ، ولكن ما قدرته على الرحيل
ولا تبالي ما قوَّته على الرسوح كالجليل ، ولكن ما قوته على
الوثوب كالطائر ! فهناك بين حدود الدنيا وحدود الآخرة
موضعٌ هاوٍ لا يتخطاه إلا ذو جناحين قد اشدَّ كل منهما
ووفى ^(١) ؛ وهناك متى انتهى الإنسان وجد عقله وضميره قد
امتدَّ من جانبيه كالجنَّاحين ، ورأى كل عمل من أعمالهما —
في السيئة والحسنة — إماريشة قد نسلها من جناحه ، وإما
ريشة قد أنبتها فيه .

القدرة على جو السماء في جناح الطائر وفي ريش هذا
الجناح وفي قوة هذا الريش ؛ والقدرة على السماء نفسها في عمل
الإنسان وقيمة هذا العمل وصحة هذه القيمة .



لسنا نبكي عليك أيها العزيز ، وإنما نبكي على أنفسنا ؛
فإن ما أمامنا لا يمكن أن يكون دنيا غير الدنيا يُفتح لها
تاريخ غير التاريخ . والحقيقة التي ضمَّتها ملايين « المجلدات »
المحفوظة في القبور ^(٢) ، هي هي بعينها أن تتغير وأن تبدل ؛
فإذا بكينا الميت فما بكنا ذهابه عنا ، ولكننا نبكي لبقائنا

(١) طال ريشه

(٢) كثافة عن الناس

يدونه ؛ كما اجتمع نفر من الغرباء في البلد النائي ؛ فَيُخْتَرَمُ
أحدهم ^(١) فما يروونه إلا معنى من أنسهم قد زال ، وركننا من
قوتهم قد مال ، وجانبنا من نظامهم قد أفسده الاختلال ! وما
دام في الأرض باك على ميت فالأرض دار الغربة لكل من
عليها ، وهي لن تكون وطناً لمن سيفارقها إلا إذا عُدَّ بطنُ
الأم وطناً لابنها .

من وطن الأشهر المعدودة ينحدر الانسان إلى وطن السنين
المعدودة ؛ أما الأزل والخلود والوطن الانساني الكبير فهناك
هناك حيث لا تساوى كرة القدم بما فيها أكثر مما تساويه
ذرة من التراب تَصْعَدُ أو تهبط

وهذا الذى نكرهه عقلاً من أمر الدنيا هو الذى نرانا
مضطرين إلى أن نعقله كرها شِدْنا أو أَيْبْنَا .

فابكى أيتها الأعين الانسانية وتَهَيَّئِ للبكاء مادمت باقية ؛
إن تيار هذا البحر الذى تنصب فيه الأحزان لا يعب من
دموعنا ^(٢) التى نبكى بها لمكابدة الموت ، ولكن من دموعنا
فى مُنَازَعَةِ البقاء .



(١) بك بجائحة من الجوائح (٢) أى لا يتدفق

لهُني لذكراه صديقا كانت لنفسه العالية كالنجمه وهبت قوة
النزول إلى الأرض ، وحبيبا لو انقسمت روحى فى جسمين
لكان جسمها الثانى

كان دائما كالذى يشعر أنه لا بد ميتٌ وتاركٌ ميراثٍ مودته
فلا أعرف أنى رأيت منه إلا أحسنَ ما فيه ، وكأنما كان يضاعف
حياتى بحياته ويجعلنى معه إنسانين

وكان له دينٌ غَضُّ كعهد الدين بأيام الوحى : لا تزال
تحتَه رِقَّةٌ قلب المؤمن وفوقه رِقَّةٌ جناح الملك يخالط
نورُه القلوب

وكان حيبا صريح الحق ترى صدقَ نيته فى وجهه كما يريك
الحق صدقَ فكره فى لسان ؛ ساميا فى مروءته ليس لها أرض^(١)
تَسْفُلُ عندها وإنما هى إلى وجه الله فلا تزال ترتفع ؛ ودودا لا يعرف
البغض ، مُحِبًّا لا يتسع للحقد ، أَوْفًا لا يسر الموجدة على أحد !
وكان رَحِيب الصدر كأن الله زاد فيه سعة الأعوام التى
سبقت قصها من حياته ، ففى قلبه قوةٌ عمرين ؛ وكان طيب النفس
فكأن الله لم يمد فى عمره طويلا لأنه نفى منه الأيام الهالكة التى
يكون فيها الإنسان للإنسان معنى من معانى الموت^(٢)



(١) كناية عن أنه لا ينحط فيها ولا ينزل . فلا

(٢) كأيام القطعة والعداوة والكيد ونحوها مما يجعل أعمار الناس أقصر مائى !

آه، لو عرف الحق أحد لما عرف كيف ينطق بكلمة
تسمى، ولو عرف الحب أحد لما عرف كيف يسكت عن كلمة
تسر، ولن يكون الصديق صديقاً إلا إذا عرف لك الحق
وعرف لك الحب!

لا أريد بالصديق ذلك القربن الذى يصحيك كما يصحب
الشیطان: لا خير لك إلا فى معاداته ومخالفته... ولا ذلك الرفيق
الذى يتصنع لك ويسامحك متى كان فىك طعم العسل لأن فيه
روح ذبابة... ولا ذلك الحبيب الذى يكون لك فى هم الحب
كأنه وطن جديد وقد نفيت إليه نفي المبعدين... ولا ذلك
الصاحب الذى يكون بكلفة الوجه: تحمر وتصفّر لأن
الصحة والمرض يتعاقبان عليها: فكل أولئك الأصدقاء لا تراهم
أبداً إلا على أطراف مصائبك، كأنهم هناك حدود تعرف بها
من أين تبدئ المصيبة إلا من أين تبدئ الصداقة. ولكن
الصديق هو ذلك الذى إذا حضر رأيت كيف تظهر لك نفسك
لتأمل فيها، وإذا غاب أحسست أن جزءاً منك ليس فىك،
فسأترك يحن إليه؛ فإذا أصبح من ماضيك بعد أن كان من حاضرك
وإذا تحول عنك ليصلمك بغير المحدود كما وصلك بالمحدود، وإذا
مات... يومئذ لا تقول إنه مات لك ميت، بل مات فىك
ميت، ذلك هو الصديق

وكنا ذات يوم على شاطئ النيل ، وبَزَغَ الهلالُ كأنه
إصْبَعُ مَلَكٍ من الملائكة خرقت ستارَ السماء لِتَحْدِثَ فيه ثقباً
تَنظُرُ منه إلى نجمة ستهوى ؛ فقلت له : هـذا الهلالُ ما انفكَّ
يَتَأَقَّى نورَ الشمس منذ خُلِقَ وهو في نفسه مظلم أبداً ؛ ولكنه
من صحبته للنَّيِّرِ قد أُنارَ وصار مع الشمس شمساً بيضاء ، فما
أَكْرَمَ الصداقة من نعمة لو أصابها المرءُ على حقها فيمن خُلِقَ
لها ! كان أهل الكيمياء القديمة يسمونها « علم زراعة الذهب »
وَأنا أسمى كيمياء الشمس في هذا القمر « زراعة الفضة » فإذا
تسمى أنت كيمياء الصداقة في معادن القلوب ؟

قال : أسمىها « زراعة الخير »

قلت : فإن لم يُنبت وأكله لَوْمُ أرضه ... ؟

قال : ذلك إلى الله لا إلينا ؛ فإن في هذا الوجود قانوناً
« قِيَمًا لِلْخِيَةِ لا يتسامح في شيء ، وما يعرف منه الناس إلا حُكْمَهُ
حين يقضى فينفذ قضاؤه بِدَرْكِ الشقاء . ألا إنه مامن الخيبة في
الحياة بُدٌّ ؛ فإنها رُدُّ الأقدار علينا حين تقول « لا » ؛ وهذه
الخبية هي العلم الذي موضوعه أن يعلم هذا الإنسان المغرور
أنه شيء في الحياة ، لا كُلُّ شيء فيها ، فإذا كَذَبَكَ صديقك بما
قَبْلَهُ وغَمَّكَ بكثرة خطئه وزَلَلِهِ ، فلا تزرعه مَقْتاً وبغضا بعد

أَنْ زَرَعْتَهُ خَيْرًا وَجُبا ، وَلَا تَقْطَعُهُ ، بَلْ انتَظِرْ فَيَأْتِيَ^(١) ؛ فَإِنْ
فُتِنَتِ الصَّدْرُ غَامِضَةً ، وَلَقَدْ يَكُونُ أَشَدُّ الْبَغْضِ مِنْ أَشَدِّ الْحُبِّ ،
وَلَيْسَ لَنَا مَعَ سُفْنِ الْقُلُوبِ إِذَا اخْتَلَفَتْ رِيَا حُهَا وَهَبَّتْ عَوَاصِفُهَا
إِلَّا أَنْ نَطْوِيَ الشَّرَاعَ وَلَسْكَنَ إِلَى وَقْتٍ

فَإِذَا جَهَدَكَ الْبَلَاءُ مِنْ صَاحِبِكَ وَبَاغَ مِنْكَ الْيَأْسُ ، فَمَا يَسُوعُ
لَكَ أَنْ تَسْكُنَ مَعَهُ إِلَّا كَالَّذِي حَفَرَ الْحُفْرَةَ ثُمَّ طَمَّهَا بِتَرَابِهَا^(٢)
أَلْقَى فِيهَا مَا كَانَ فِيهَا مِنْ قَبْلِ وَدُخِيَ كَأَنْ لَمْ يَكْشِفْهَا !

قُلْتُ : آم ! فَإِذَا كَانَتْ الْحُفْرَةُ مِنْ شَرِّهَا فِي عَمَقِ الْبَرِّ ذَاهِبَةً
إِلَى الْأَغْوَارِ الْبَعِيدَةِ ، أَفَأَتَضَى شَطْرَ الْعَمْرِ أُرْدم فِيهَا بَدَأَ أَنْ قَضَيْتُ
شَطْرَهُ أَحْتَفِرُ مِنْهَا ؟

قَالَ : فَمَنْ ذَا جَعَلَهَا بَرًّا سِوَاكَ ؟

قُلْتُ : وَرَأَيْتُ لَا أَدْعُهَا بَرًّا خَسِيفَةً^(٣) يَلْعَنُهَا عَمَقُهَا الْغَائِرُ
فِيهَا بِأَنَّهَا فَارِغَةٌ مَظْلَمَةٌ ، وَيَلْعَنُهَا تَرَابُهَا الْقَائِمُ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا مَتْرُوكَةٌ
مُهْمَلَةٌ ؟

قَالَ : سَبِيلُ الْفَضِيلَةِ خَيْرٌ مِنْ هَذَا : فَسَكُنْ مَعَ النَّاسِ فِي حَالِ
تُشْبِهَ مَحَلَّ نَفْسِكَ لَا مَحَلَّ أَنْفُسِهِمْ ؛ وَمَا أَنْسَكَرَ أَنْ مِنَ النَّاسِ مِنْ

(١) الْفَيَآءُ : الرَّجْمَةُ ، كَمَا يَدُورُ الْغَالُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ

(٢) رَدَمَهَا وَغَطَّاهَا

(٣) أَيْ مَنخُفَّةٌ عَنِ الْأَرْضِ

يوقعون في نفسك الظنة^(١) بِكَيِّتَ وَكِيتَ من سوء خُلُقِهِمْ ،
وكذا وكذا من أقبح أعمالهم ، حتى لتسكون صداقة أحدهم كأنها
نصف معركة حربية ... ولكنَّ الهزيمة عن صديقك وأنت
صديق ، خيرٌ من النُّصرة عليه وأنت عدوٌّ ، ... فتحصَّن من
كيد هؤلاء وأشباههم بالانزمام عنهم لا بمدافعتهم ؛ فذلك إن
لم يُقْعِدْهم عنك لم يُلْحَقْهم بك ، ثم إن ردَّك إليهم رادٌّ بعدُ
كنت الأكرم

واعلم أن أرفع منازل الصداقة منزلتان : الصبرُ على الصديق
حين يغلبه طبعه فيسيء إليك ؛ ثم صبرُك على هذا الصبرِ حين
تغالب طبعك لكيلا تسيء إليه !

وأنت لاتصادق من الملائكة ؛ فاعرف للطبيعة الإنسانية
مكانها ، فإنها مبنية على ما تكره كما هي مبنية على ما تحب ؛ فإن
تجاوزت لها عن بعض ما لا ترضاه ضاعفت لك ما ترضاه ،
فَوَفَّتْ زيادتها بنقصها ، وسَلِمَ رأسُ مالك الذي تُعامل
الصديق عليه !



قلت : فإني لأعنى ذلك الذي أضع « رأس » المال بيني
وبينه ، ولكن شخصاً آخر وضعت « قلب » المال بيني وبينه ...

(١) الظنة : التهمة : تجد من أخلاقهم وأعمالهم ماتهم صداقتهم به . . .

قال : ففهمنا إذن ! ومن هنا صارت الحفرة بئراً ولكن
أفتنى فإنى لأعرف هذا الذى تسميه الحب : فهل هو بين النفسين
شئ غير الصداقة ؟

قلت : هو هى إلا فرقاً واحداً .

قال : إن كان واحداً فلقد هان ، فما هو ؟
قلت : الفرق بينهما أنك ترضى أن يكون الصديق لنفسه
أكثر مما هو لك ، ولكنك لا ترضى إلا أن يكون الحبيب لك
أكثر مما هو لنفسه .

قال : فذاك رِقٌّ لا حب .

قلت : وهذا هو الذى يجعل الحفرة بئراً ، فالصداقة فى المودة
تجذب الطبع من الطبع ليتفقا ، ولكنها فى الحب تجذب الطبعين
ليكونا دائماً عند النقطة التى يتناقضان منها ! وأعظم ما يسوءك
من الصديق لا يزيد على أن يردك إلى نفسك وحسب ، ولكن
أيسر ما يغضبك من الحبيب يسلط نفسك عليك بسوء التحكم
والإعنات والآراء الفاسدة ، حتى يترك دمك وكأنه تيار من
الغيط ، فإذا حبيبُ نفسك أعدى أعدائها ، وإذا هو قد أصبح
العدو لأنه لا يزال الحبيب !

قال : أما إن هذا تعقيدٌ على النفس ، وهو العلة فى أن المحب
الغَيظ لا يسكن غيظه ولا يهدأ قوره ؛ لأنه يحل العقدة الواحدة

بطريقة تجعلها عقدتين ؛ ولكن ، أو ليس خيراً لك إذا أنت
دُفِعت إلى العداوة في الحب أن تستشعر بكرم المَلَك الذى فى
نفسك ، أوَمَ الحيوان الذى فى صاحبك ، فترجع بنفسك أنت إلى
ملكيتها وترده هو إلى حيوانيته ؟

أما إني أعرف لأهل الحب دواءً ما يمرض بعده رجل من
امرأة أساءت إليه : أيها العاشق ، أَمَا صَدَمْتُكَ بهيمةٌ من البهائم
أو رَحَمْتُكَ ^(١) أو جَمَحْتُ بك فأوجعتك بلا غيظ ، وأساءت
إليك بلا حقد ، وكسرتك بلا انتقام ، ولم يتعاضدك من أمرها
شيء فى الوهم ولا فى الحقيقة ... ألا وَيْحَكَ ، أَلْبَسَهَا جِلْدَهَا
وحوافرها ^(٢) ... ولا تتمثلها فى مخيلتك إلا وجهاً جميلاً على
جسم حيوان ؛ فإنك إن تفعل ذلك وتأخذ نفسك به ، تطمس
عليها فى محبتك طمساً ؛ ولا تجد لها فى قلبك إلا النفرة والاشمئزاز ،
وتعجز فيها الشيطان ، لا يدرى من أين يأتيك ولا كيف يتدنس
بها إلى دواهيك ، مادام لها عندك الجلد والحافر ... !

ولعل الناس لم يعتادوا فيما بينهم أن يتنازوا ويتساوا فى
عبارات السقوط والتحقير بأسماء من أسماء البهائم : كالكلب
والخنزير والجمار ، إلا على هذا الأصل الذى يميّزه لك ، توحى

(١) رحمت الدابة : رفست

(٢) نحسب هذه العبارة ستجرى بين المحبين مجرى الأمثال ، فإذا شكاً إليك محب يريد
السلو ولا يطيقه ، فاختصر علم النفس كله فى قولك : « ألبسها جلدها وحوافرها »

به غريزة السكرامة والسقوط من حيث يدرون أو لا يدرون
الحب ليس شيئاً غير الجمع بين أعلى الصداقة وأسفلها ؛
ألا ترى أنه مادام الحبيبان على أسباب الرضا فكلاهما أو أحدهما
يتمثل الآخر كما يتمثل ملكا من الملائكة ، بل ويسميه الملك
الحارس ، أو الملك الموحى ، أو الملك المقدس .

فإذا صار إلى الخلاف واستحكم بينهما ، لم يُغن طلب المعاذير
تتغذى بها الصداقة ، ولا طُلب العثرات تشتد بها العداوة ؛ وليس
المبغض منهما شيء دون أن يعتمد إلى تلك الصداقة فيجعل عاليها
سافلها ؛ فلم يبق حينئذ إلا أن يكون صواب الحب في هذه الحالة
قائما على عكس الحالة الأولى ؛ فما كان في صورة ملكية ليثبت عليه
الحب وجب أن ينقلب في صورة حيوانية ليزول عنه الحب

يا من أسكره الغرام ، إن عَرَبْدَ حُبِّكَ فاحطم كأسه وأرق
خمرها ولا ترها إلا سماً ؛ فإن أكبر البلاء على السكير أن يلبس
الحقائق الملهكة أثواب زيتها ، فيزعم بينه وبين نفسه أنه لا يشرب
الخمر ولكنه ينقع غلة أحزانه بكأس من ماء السرور ، ولا
يتوحد في السكر ولكنه يستمطر على خموله سحابة النشاط ،
ولا يتجرع الجنون ولكنه يذيب همومه في جرعة من النسيان ...
ألا ما أصدق الخمر في السكير وهي صائمة ، وأكذب السكير
على الخمر وهو يتكلم !....

الفصل التاسع

الشيخ محمد عبده

وَشَفَّ سحَابِي عن جلال رائع يضطرب القلب له ! أذكرني
روعة السحابة التي كان يهبط فيها ملك الوحي ، ليست في نفسها
آية ولكن الآية فيها .

وظهر لي وجه الشيخ ، وما أدراك من الشيخ ؟ ثم ما أدراك
من هو ؟ ^(١) رجل كان في تركيب العالم الإسلامي أشبه بالجبهة
من جسم المؤمن : هي تجلي نور الإيمان وأعلى ما يرتفع الأعين ،
ولكنها مع ذلك أول ما يسجد لله من هذا الجسم كله !

خاق فصيحاً مبين اللهجة ، لأن لسانه أعَدَّ لنفسه معجزة
الدنيا في هذه اللغة ، فكان لسانه — ولا غرو — معجزة في
الالسة ؛ وكان له بيان ينبثق من طبعه المصقول كالشعاع الذي
تواضك به المرأة إذا انقذت جمره الفلك عليها ^(٢) .

(١) قال الراغب : كل موضع ذكر في القرآن (وما أدراك) فقد عقب ببيانه :
نحو (وما أدراك ما هبة ، نار حاميه) ؛ وكل موضع ذكر فيه (وما يدريك) لم يعقب بذلك :
نحو (وما يدريك لعل الساعة قريب) . فلما : وهذا من ادق معاني الإعجاز ، فإن (أدراك) صيغة
الماضي ، والماضي مكشوف معروف لأنه وقع ، ولكن (يدريك) صيغة المستقبل ، والمستقبل
محبوب ، فتأمل وكرر النظر ، فإن المقام لا يتسع هنا
(٢) كناية عن الشمس ، ونوامض : تبرق

وكان له عقل لو وزن في رُجحانه لُدَّ بين العقول من موازين التاريخ، وقلبٌ إن يكن في جنبه كالقلوب التي وضعت على منبَحر المعاني الأرضية فإنه كان دون القلوب على مهبط السماوات (١) رجل لم يُخلق من قبل زمنه ؛ لأن الأقدار المصروفة ذخرتُه للقرن الرابع عشر تجعله وأصحابه النهضة الثالثة في الإسلام (٢) ، وكتبت له أن يكون الكنز الثمين الذي يُفجأ العالم بانكشافه ؛ ليعود القديم المبدع الذي كاد يُنسى فيتمكن في الأرض بأسلوب جديد . وما يدريك ، لعل هذا الحكيم الفذ في عمله وعمله وذكائه وإصلاحه سيكون التمثال العقلي المشرف على الأجيال ، يفصل في تاريخ الإسلام بين ثلاثة عشر قرناً مضت وثلاثة عشر قرناً تأتي ؟

ولقد كان في تفسير كتاب الله رجلاً وحده ، على بُعد عصره من فجر الإسلام ؛ فكان يحمل في رأسه ذهنًا كآلة اللاسلكي ، تهبط عليه من أفاصي الدهر شرارة النبوة ، فإذا تكلم في آية رأيت كأنما تتكلم الآية نفسها على ملا العقل بن مشارق الأرض ومغاربها . ولست أدري على أي روح نبئت هذا الرجل ، ولكن

(١) ليس همه إلا المعالي ومصالح الخلق

(٢) نهضة الأخلاق زمن الصحابة والتابعين ، ثم نهضة العلم من بعدهم ، ثم نهضة العقل الإسلامي التي كان يدعو إليها الشيخ رحمه الله

الذى أعرفه أنه حين أثمر فنضج فَحَلَا ، أذاق الناس من ثمره
طعمَ معجزة الفكر العربى

* * *

نظرتُ إلى عينيه ذات مرة فُخِّيلَ إلى أن فيهما رهبة الأسد
حين يجلّ بنظرة كبريائه ^(١) ليدلّ على أنه الأسد لا غيره ، فمدتُ
النظر إليهما ، فإذا روعة إنسان هو أرفع من إنسانيتنا ، وإذا
أنا ألمح فيهما ذلك الشعاع الغريب الذى ينبعث من آدين الحكماء
ليصل بين السر السكّان فى المعقول والسر السكّان فى العقل ؛
وكأنه استشعر ذلك فتبسّم ، فكان لنظرته جلال سماوى رحيم
أشرق على نفسى كما أشرق على روح الطفل ابتسامه أصله الإنسانى
كان منطويًا على حقيقة روحانية يسطع ضياؤها فى عينيه
وينتشر على ما حوله ، فلا يشعر من يجلس إليه أنه جالس مع
الرجل والسكن مع النفس العالية التى هى فيه ^(١) ؛ وكان أعظم
هيبة من الملوك ؛ لأن هؤلاء يحيطون أنفسهم بالديوان والمواكب

(١) أى يرفع بصره وينظر نظراته الشديدة

(٢) قابات الشيخ (رحمه الله) فى الجامع الأزهر مرة من المرات ، واستأذن عليه
طالب من نوابغ الخلية وأذكيائهم ، فلما نزل بين يديه ونف كما ينف المولى : واضعا يديه
أسفل صدره ، راميا بإطرافه إلى الأرض ، وتكلم كالنابج المنفزع حتى فرغ وانصرف .
فأعظمت ذلك ، ولما خرجت لحقت به وكلته فيه ، فقال : وأنا أنكرت من جلوسك
إلى جانب الشيخ ملك الجاسة ما أنكرت أنت من وقوفى على لك الهيبة . لو تعلم أن أحدنا
لا ينف أمام هذا الرجل إلا كما ينف العالم إزاء كتاب نادر مضى يفش عنه عدة سنين
لما رآه سجد لله شكراً وأنت تحميه يسجد للكتاب ... !

والأسلحة وكثير من ضروب التوقير والتعظيم ، أما الشيخ فسكنت
تراه حيث رأيته كالمحارب حيث يكون : لا يتقف عنده إلا من
وقف ليتخضع ، وما ذكرته إلا ذكرتُ قول القائل : في هذه
الصورة الآدمية آدمُ والملائكة له ساجدون !

* * *

كان هذا الإمامُ الفذ في قوة من ربه كقوة الجبل : يحمل
ما يحمل ولا يتلوى ؛ وفي سعة من طبعه كاستفاضة البحر : يغمر
ما يغمر ولا يتغير ؛ وفي صراحة من نفسه كاستطارة النهار : يطلع
كما يطلع ولا يخفى ؛ فهو رجل لكنه فكر من أفكار السماء ، وهو
جسم لكنه عضلة من عضلات الطبيعة ، وهو إنسان لكنه حقيقة
من حقائق السكون .

يصفه الناس بأنه الرجل الحكيم الذي أوتي سر الحكمة
ليُذخَّر به ، ويصفه التاريخ بأنه الحياة المجردة التي وهبت سرَّ العظمة
لتعمل لها ، وتصفه الحقيقة بأنه العقل المفسر الذي اتصل به
طَرَفُ السر الأعلى ليتكلم عنه وليعمل له وليذخَّر فيه .

إذا كان في بعض جوارح الأرض أمكنة نادرة مقدسة هي
قلب الدنيا الذي أودعه الله سرَّ النَّالِ ، ففي بعض جوارح الناس
قلوب نادرة هي كنز الأمكنة ؛ ولقد كان العالم الإسلامي كله
يتصل من قلب الشيخ العظيم بمنسك^(١) فيه معنى كمنى السكبة

(١) مناسك الحج : عباداته ، وكذلك مواضع العبادات

إِذْ تَوَلَّى شَطْرَهَا كُلُّ وَجْوهِ الْمُؤْمِنِينَ

وأما بعدُ فـيـكـأنـمـا أفرط على القلم فيما كتبت عن الحب؛ فإنه
يـخـيـل إلى الساعَةِ أن روح شيخنا الجليل تريد أن تغسل هذا
الكتاب كله وتدعه ورقاً أبيض^(١) ويخيل إلى كذلك أني كنت
ماضياً فيما أكتبه كما تـمـتـعـكـس الأفعى^(٢) في مشيتها، إذ يندفع
نصفها ليـجـر النصف الآخر، فلا تدري إن كان آخرها معلقاً
بأولها أو الأول هو معلق بالآخر

وكذلك كنت أكتب، فمرة أجد الفكر يجره الغلب جراً،
ومرة أجد القلب يذمحب للفكر؛ وبين ظهري ذلك^(٣) أراني
ساعةً مُتـلـخ القلب، وساعةً مُدَّله العقل^(٤) كأنني لم أحب إلا
لأتحول رجلاً شاذاً تراه في الحب والبغض وفي الصواب والخطأ
وفي الفكر والحس — على حدٍّ مما يُعرف وحدٍّ مما لا يُعرف؛
فليس كله من هذا ولا كله من ذاك؛ وهو محب إلا أنه يُبغض،

(١) لما انتهيت إلى هذا الموضع من الكتابة وفرغت من صفة الشيخ، ذهمتي فجأة
من فجأت المرض أنستني بأيامها كل ما كنت أريد أن أخطه في هذا الفصل، وكسرت
حدة نفسي وهأتني تهبة جديدة الكلام جديد، فكان هذا من أعجب ما اتفق

(٢) تمكسها: أن يتراجع بعضها على بعض في انسحابها

(٣) أثناء ذلك، تقول: هو يتكلم ويعمل كذا بين ظهري ذلك، أي في أثناء الكلام

(٤) أي ذاهبهما .

ومبغض لكنه يجب ... !

إن زَفَرَةً من جهنم ونفحة من الجنة جاءتَا إلى هذه الدنيا
فَرَأَتَا من نُحِبُّ الناسَ بَدْءاً مُبْدَعاً^(١) حتى لَا يَخْلُصُونَ بِأَعْمَالِهِمْ
إِلَى جَنَّةٍ وَلَا نَارٍ ، فَلَا هُمْ أَهْلُ هَذِهِ وَحْدَهَا وَلَا أَهْلُ تِلْكَ عَلَى
حِدَةٍ ؛ فَاخْتَلَطَ نَفْسُ الْجَنَّةِ بِزَفِيرِ النَّارِ وَامْتَزَجَا حَرّاً يَسْتَوْقِدُ
الضَّلَوعَ يَبْرُدُ تَتَلَجُّ عَلَيْهِ الصُّدُورُ ، وَاجْتَمَعَا نَعِيمًا يَبْؤُسُ وَرَاحَةً
يَتَعَبُ وَسُرُوراً بِهِمْ ، ثُمَّ وَقَعَا فِي الْقُلُوبِ مَعاً فَذَا هُمَا الْحُبُّ !
كَذَلِكَ تَوْحَى إِلَى رُوحِ الشَّيْخِ

أَنْتِ يَا هَذَا إِنْ أَحْبَبْتَ امْرَأَةً فَهِيَ كَمَا تُشِيرُ كُلُّ مَا فِيكَ مِنْ
الْكَامِلِ تُنَبِّهُ كُلُّ مَا فِيكَ مِنَ النِّقْصِ ، يَبْدُو أَنَّهَا تَجْعَلُ هَذَا النِّقْصَ
عُلُوبًا وَهُوَ أَفْسَدُ لَهُ ، كَالزَّوْبَعَةِ إِذْ تَرْفَعُ مِنَ الْأَرْضِ خَلْقًا مَارِدًا
مِنَ الْغُبَارِ مَلْتَفًا بِالنُّورِ ذَاهِبًا إِلَى السَّمَاءِ ؛ فَيَكُونُ ارْتِفَاعُ الْغُبَارِ
شَرًّا طَائِرًا لَمْ يَكُنْ فِي الْغُبَارِ السَّاكِنُ ... أَفَتَحْسَبُ أَنَّ حُبَّكَ
إِيَّاهَا هُوَ الْحُبُّ ؟ كَلَّا بَلْ هُوَ بَادِي الْأَمْرِ حُبُّكَ أَنْ تُعْجِبَ
بِكَ ، ثُمَّ يَزِيدُ فَذَا هُوَ الْحُبُّ أَنْ تَمِيلَ إِلَيْكَ ، ثُمَّ يَبَاغُ فَذَا هُوَ
حُبُّكَ أَنْ تَخْضَعَ لَكَ ؛ هَذِهِ ثَلَاثُ كُلِّهِنَّ مَقْسَدَةٌ ، فَإِنْ هِيَ أَدَّتْ
فِي رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَى فَضِيلَةٍ وَاحِدَةٍ أَدَّتْ إِلَى أَلْفِ

(١) أَمْرًا غَرِيبًا

رديلة في ألف رجل من هذا الحيوان^(١)

كل شيء يمكنك أن تضع ضميرك في أوله فتمضى فيه على
بصيرة ، إلا هذا الحب ؛ فان ضميرك لا يأتى موضعه فيه إلا
آخرأ ؛ فاذا أنت أردت أن يحكم قلبك على من تحبها ، وأن تأخذ
عليها حكم قلبها^(٢) ، فإنما تريد بنفسك الألم لا الحب ، تريد أن
تستوحى الدموع وتخرج منها كلاما يبكى ، تريد أن تزدرع
شجرة الجنون التى ينبت فيها زهر الشعر !... وهذا لا يسمى
حبا لحيبة ، ولا يؤمن إلا على كبار الحكماء ، كالأبومن خص
الآلة المهيبة... إلا على كبار العلماء والمخترعين !

أنت يا هذا إن أحببت خاضع لقلبك ، ولكنك أنت وقلبك
سائران في طريق قلبها... يقول كل محب في حبيبته : لاهى
إلا هى . أفلا يدل ذلك على ضلال الحب وإفساده لمكة التمييز
وأنه شيء من الخيل يعترى فكرة بعينها في العقل ويخرجها إلى الهوى
والبله ؟ وإذا ساغ اكل محب أن يقول في صاحبتة : لاهى إلا
هى ، فنعنى ذلك أن (الهيات) ... كآهن عبت وباطل ، وتكون
الحقيقة الطبيعية التى يُصرح عنها هذا القياس ، أن كل (هى) مثل
كل (هى) فى الواقع ، ولا انفراط لها إلا فى عقل مجنون لا مساك له

(١) كان أكثر زجر الشيخ لاحد أن يقول : « يا حيوان ! » فبوخ ولا يقول إلا حقاً

(٢) أى لا يحكم قلبها عليها إلا بما أردت أنت

من المنطق ولا عبرة به في القياس

من أعجب الأمور أن الصفات التي يُعَدُّ بها الإنسان إنساناً تخضع كلها أحياناً لصفة واحدة من تلك الصفات التي يُعَدُّ بها الإنسان حيواناً ؛ فإن خدعك بائع مثلاً في دراهم معدودات ، لا تُمَضِ الأمر على أنه خدعك ، بل تعرف أنه غشك ، ثم لا ترى أنه غشك ، بل ازدراك ، ثم لا تقول إنه ازدراك ، بل تهزأ بك ؛ وهذه حركة النفس في اندفاعها إذا تركت تندفع وتركت المعاني الغضبية تخوض في دمهـا

ومن ثم فلا يكون البائع في رأى نفسك قد سلبك بعض الدراهم ، بل شيئاً من القوة التي بها حَوْلُك وحيلُك ، ومن الذكاء الذي تعامل الناس عليه ، وسلبك بعض الشأن الذي يجعلك رجلاً ذا بصر ومعرفة ؛ وعلى قدر ما يتحرك من ذلك في نفسك يتحرك من الغيظ والحقد إن كنت رجلاً داهية ذكياً ، وبخاصة إذا رأيت البائع لا يسأل أن تعرف أنه تغفلك ، بل يجعل من همه أن تعرف ذلك ؛ فلا تعود الدراهم أشياء كما هي في نفسها من ضعف الخطر والقيمة ، بل كما هي في نفسك مما وضع أمرها عليه ؛ فلا تنحط قيمتها إلا بانحطاط قيمة النفس ، وتلتحق بمعاني القهر والغلبة وما كانت إلا من بعض معاني الربح والخسارة .
وعلى هذا المثل يقاس أمر الحب ونسكده وجنونه ؛ فما هو

على قدر المرأة ، ولا بمقدار مما تعطيه ، وإنما هو استخذاء المعاني الإنسانية وخضوعها لصفة حيوانية واحدة ينصرف كل ما في هذا الإنسان إليها ؛ والامر بعد كما قال أحد الأطباء في تعليل الجوع إذ قال : إن المعدة متى خَوَّتْ ^(١) وفرغت من طعامها الذي كان فيها بعثت أعصابها الباطنة برسائلها العصبية إلى ساقه المخ ، ^(٢) وإلى مركز الأعصاب في العمود الفقري ؛ تؤذن بأنه صار من الممكن إرسال طعام آخر . قال : فتترجم مراكز الأعصاب السفلى هذه الرسائل إلى جوع ...

وقل أنت مثل ذلك في القلب ، فإنه متى وقعت امرأة من حاجته موقعا ، ظمئ إليها فأرسل رسائله العصبية إلى المخ بأنه من الواجب ... إطفاء هذا الغليل المحرق ، فتترجم مراكز الأعصاب هذه الرسائل إلى حب ... !

وأنت أعلى عينا ^(٣) بأن هذا كله نقلٌ للمعاني الحيوانية إلى اللغة التي تحرك النفس فتأججها إلى تسخير قواها في دفع الألم إن كان حقيقة أو خيالا ؛ فإذا أضلماك أمرُ الحب وضقت به وعجزت أن تصرف القلب عن رسائله ، فاشغل العقل عن ترجمتها ، وأحكم

(١) أي خلت ، والحواء (وبقصر) : خلو الجوف من الطعام

(٢) الجز. الخلفي منه

(٣) أي أبصر بذلك وأخبر

مَعَاقِدَ هَذِهِ الْخَيَالَاتِ وَمَقَاصِدَهَا ، وَازْدَرِ تِلْكَ الْحَيَوَانِيَّةَ ، وَأَبْقِ
الدَّرْهَمَ عَلَى قِيَمَتِهِ ... وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَرْأَةَ مُعْطِيَةً أَكْثَرَ مِمَّا فِيهَا ،
وَلَا تَتَوَهَّمَنَّ أَحْسَنَ مَا يَبْدُو لَكَ مِنْهَا إِذَا سَحَرَتْ بِهَ عَلَى عَيْنِكَ
إِلَّا صُورَةً مَسْجُورَةً مِنْ أَقْبَحِ مَا فِيكَ أَنْتَ ؛ فَإِنْ قَرَّرْتَ فِي نَفْسِكَ
هَذِهِ الْقَوَاعِدَ ، وَأَجْرَيْتَ عَلَيْهَا مَا يَتَرَجَّمُ لَكَ الْعَقْلُ مِنْ رِسَائِلِ
الْقَلْبِ ، جَاءَكَ مِنْ هَذِهِ الرِّسَائِلِ الْحِكْمَةُ وَالْفَلَسَفَةُ وَالْكِبْرِيَاءُ
وَالْإِنْفَاقُ ، أَوْ الصَّبْرُ وَالْإِنَانَةُ ؛ وَخُضَّتِ الْغَمْرَةُ ^(١) بِذِرَاعَيْنِ فِيهِمَا
السَّبَاحَةُ وَالنَّجَاةُ لَا الْإِخْتِبَاطُ وَالْغَرَقُ !

كَذَلِكَ أَوْحَتْ إِلَى رُوحِ الشَّيْخِ !

فِي مَنْطِقِ الْحِسِّ : مَتَى وَجَدْتَ الْأَسْبَابَ جَاءَتِ النَّتِيجَةُ مِنْ
تَلْقَاءِ نَفْسِهَا ؛ لِأَنَّهَا تَدُورُ مَعَ أَسْبَابِهَا وَجُودًا وَعَدَمًا ، فَاحْذَفِ
الْأَسْبَابَ تَسْقُطِ النَّتِيجَةُ ؛ وَلَكِنْ الْأَمْرُ عَكْسُ ذَلِكَ فِي مَنْطِقِ
الْحُبِّ : احْذَفِ النَّتِيجَةَ تَسْقُطِ الْأَسْبَابُ كُلُّهَا ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَفَكَّرَ
فِي لَذَّةِ تَرْجُوعِهَا أَوْ تَحَرُّصِ عَلَيْهَا ، نَسِيكَ الْحُبُّ قَبْلَ أَنْ تَنْسَاهُ ؛
وَهَلْ عَلِمْتَ قَطُّ عَجُوزًا تُعَشِّقُ لِأَنَّهَا عَجُوزٌ أَيْسَ فِيهَا إِلَّا خُطَامُ
الْعَمْرِ ، أَوْ عَرَفْتَ إِنْسَانًا يَحْدُسُ عَلَيْهَا ظَنًّا مِنْ ظُنُونِ الْحُبِّ أَوْ
يَصِلُ بِهَا سَبِيحًا مِنْ أَسْبَابِ الْمُظْمَعَةِ ؟ أَمَا إِنْ هَذِهِ الْفَانِيَّةُ مَنْطِقُ

(١) اللجة ومكان التيار

سقطت نتيجه فلا يمكن في الطبع أن تقوم أسبابها ؛ فإذا أنت
 محقت النتيجة و خيالها لم يبق بينك وبين المرأة ماسة ^(١) منك أو
 منها ، واستحالت إلى منظر من مناظر الجمال يفهمك أو يُلهمك
 أو يفسر لك ، فلا تنزل منها منزلة الرجل ، بل منزلة الفكر ،
 ولا تكون هي منك بمقام المرأة ، بل بمنزلة المعنى !

المصائب والنساء ، من شقاء الشقي أن يبالغ فيهن ؛ فإن
 ما ينالك من خوف المصيبة ليس منها ، ولكنه منك ، وما يذهلك
 من حب المرأة ليس فيها ، ولكنه فيك ؛ فأنت من ذلك كالذي
 ينحت صنما من الحجر ثم يصله بمكان الرغبة والرهبة من نفسه ، فإذا
 القدرة كلها قد استفاضت عليه ، وإذا الحجر الذي لا يملك ولا
 حشرة من حشرات الأرض قد تملك رجلا بعقله وقلبه وحواسه
 وحسيزه من الدنيا ؛ وإذا هذا الرجل يتعبد بحقيقته لخياله ، وبعقله
 لوهمه ، وبعلمه لجهله ، وبما يصدق فيه لما يكذب عليه ؛ ويبقى
 الحجر حجراً ولا يبقى الرجل رجلاً ؛ وكذلك يصنع عاشق المرأة
 بالمرأة ، وهي عند نفسه كأنما تبت جسمها على روح صنم معبود ؛
 يحسب فيها السماء والجنة ، وما فيها أكثر من امرأة ؛ ويكون منها
 نبي الحب والرضا كحجر الألماس : يلقى عليه الضوء لوناً واحداً
 فيخرجه من قلبه ألواناً ذوات عدد في بريق وبصيص ، وفي البغض

(١) أي صلة وشابكة

والنفرة كالجسم المحترق : تحوّل كله ناراً من شرارة أوجرة أو شعلة ،
وهو في كلتا الحالتين يُسر ويألم بما أدته كلها لقايل طراً عليه من مادتها
هى ، فهى شىء واحد ولكنها بما أدته تنقلب جمالاً ملء عينه ، وفتنة ملء
صدره ، وفكراً ملء عقله ، وكذا وكذا مع هين وهين وهنات ^(١) .
إنما هذه سبيل اللذات فى الأنفس المريضة التى تزدلف بما فيه
لذتها إلى ما فيه هلاكها ، ولا تُكسبها اللذة شعوراً إلا لتسلبها شعوراً
غيره ، ولا تهيج فيها خيالاً إلا لتطمس به على حقيقة ، ولا تبتعث
حرصاً إلا لتغلب به على قصد ؛ فالخمر فيمن يُبتلى بها تسلب الشعور
بفضيلة العقل ، التشنج اللذات الخيالية التى هى من بواعث الجنون ؛
والمسال فيمن يحرص عليه يستلب الشعور بفضيلة الخلق ، ليحدث له
اللذات الوهمية التى هى من بواعث السقوط ؛ والمرأة فيمن يُتمسح
بها تتنزع الشعور بفضيلة التمييز ، لتؤتيه اللذات الغريبة التى يكون
منها الجنون والسقوط ، ضرب من هذا وضرب من ذاك !
ولن تجد كل جرائر الحب إلا متفرعة من هذين الأصلين ؛
فهى بمجملتها داخلة فى باب سلب العقل بعينه أو أكثره ، وفى باب
سلب الخلق بعينه أو كله .

وفى النفس الانسانية لا تمرض الحقيقة إلا من سوء التخيل فيها ،
كأن نعمة الخيال إنما وهبت للإنسان لتخرجه من حدود الحقائق

(١) أى مع كذا وكذا وامور أخرى مما يمكن أن يكون

فَيُفسدُها وَيُفسدُ آثارها فِيهِ ، فَتَقْلِبُ مِنْ مَادَّةٍ شَقَاءُ وَهِيَ مَادَّةُ
سَعَادَتِهِ...! فَالْخَيَالُ هُوَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَثْبِهَا الْإِنْسَانُ إِلَى الْمَجْهُولِ ، وَهُوَ
نَفْسُ الْقُوَّةِ الَّتِي يَسْقُطُ بِهَا إِذَا تَقَاعَصَتِ الْوُثْبَةُ أَوْ طَاشَتْ ، وَقَلْبًا جَاءَتْ
إِلَّا مِنْ هَاتَيْنِ ، وَالْخَيَالُ هُوَ الْعَنْصَرُ الَّذِي تَمْزِجُهُ بِالْحَقَائِقِ لِيُحْدِثَ فِيهَا
التَّنَوُّعَ فَيُخْرِجَ ثَلَاثَ حَقَائِقَ مِنْ اثْنَتَيْنِ ، وَهُوَ نَفْسُهُ الْعَنْصَرُ
الَّذِي يَسْتَخْرِجُ الضَّرَرَ الْكَامِنَ فِي هَذِهِ الْحَقَائِقِ مَتَى أُسْرِفَ عَلَيْهَا
فَيُخْرِجَ مِنَ الْمُنْفَعَةِ الْوَاحِدَةِ مَضَرَّتَيْنِ : لِلْحَقِيقَةِ وَالْإِنْسَانِ مَعًا !
فَالْمَنْهُومُ الَّذِي يَنْتَهِي بِطَنُهُ وَلَا تَنْتَهِي نَفْسُهُ ^(١) ، وَالْحَرِيسُ الَّذِي
يُفْرِغُ عَمْرَهُ وَلَا يَفْرِغُ أَمَلُهُ ، وَالْفَاجِرُ الَّذِي تَذْهَبُ مُرُوءَتُهُ وَلَا تَذْهَبُ
لَذَتُهُ ، وَالْمُدْمِنُ الَّذِي يَسْقُطُ عَقْلُهُ وَخَيَالُهُ لَا يَزَالُ يَعْلُو ، وَالْمَقَامِرُ الَّذِي
لَا يَنْفِكُ يَطْمَعُ فِي الْغِنَى وَهُوَ فَقِيرٌ حَتَّى مِنَ الْفَقْرِ... ^(٢) كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ مَرِيضٌ بِمَرَضٍ خَيَالِي وَاحِدٍ : أَمَّا الَّذِي هُوَ
مَرِيضٌ بِشَيْءٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، فَهُوَ الْعَاشِقُ الْمَرِيضُ بِامْرَأَةٍ يَهْوَاهَا !
وَهَلْ فِي شَقْوَةِ الْخَيَالِ وَشِدَّةِ غَلَوَاتِهِ عَجَبٌ مِنْ خَيَالِ هَذَا الْعَاشِقِ ،
إِذْ يَرَى الْجَمَالَ الْمَخْلُوقَ كُلَّهُ لَا يَبْلُغُ مَبْلَغَ الْقَبْلَةِ الْأُولَى الَّتِي لَا تَزَالُ
فِي شَقِي حَبِيبَتِهِ لَمْ يُخْلَقْ بَعْدُ ؟

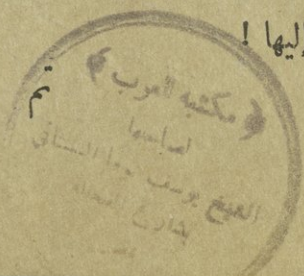
المرأة في النساء امرأة ، كالواحد في العدد واحد ؛ بَيِّنْ أَنْ
خَيَالُ الْعَاشِقِ يَرْقُمُ إِلَى هَذَا الرِّقْمِ الْفَرْدِ صَفًا طَوِيلًا لَا يَرَاهُ أَحَدٌ

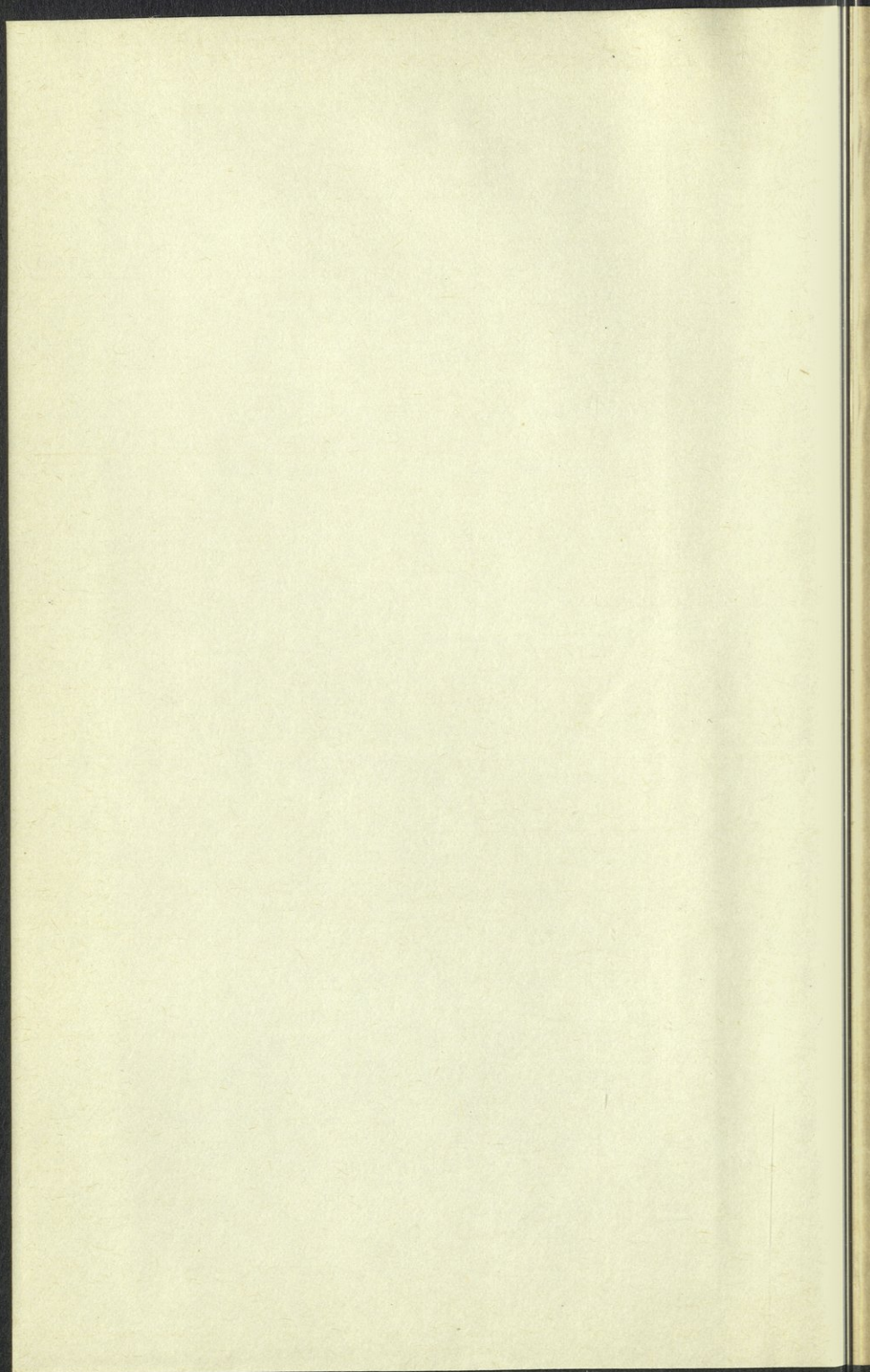
(١) يَمْتَلِئُ بِطَنُهُ وَلَا يَزَالُ يَشْتَهِي (٢) الْمُرَادُ أَنَّهُ نَزَلَ مِنَ الْعَدَمِ وَالْحَاجَةُ مَنْزِلَةً
قَدْ يَكُونُ فَقْرُ الْفُقَرَاءِ عِنْدَهَا شَيْئًا يُسَمَّى بِسَرٍّ

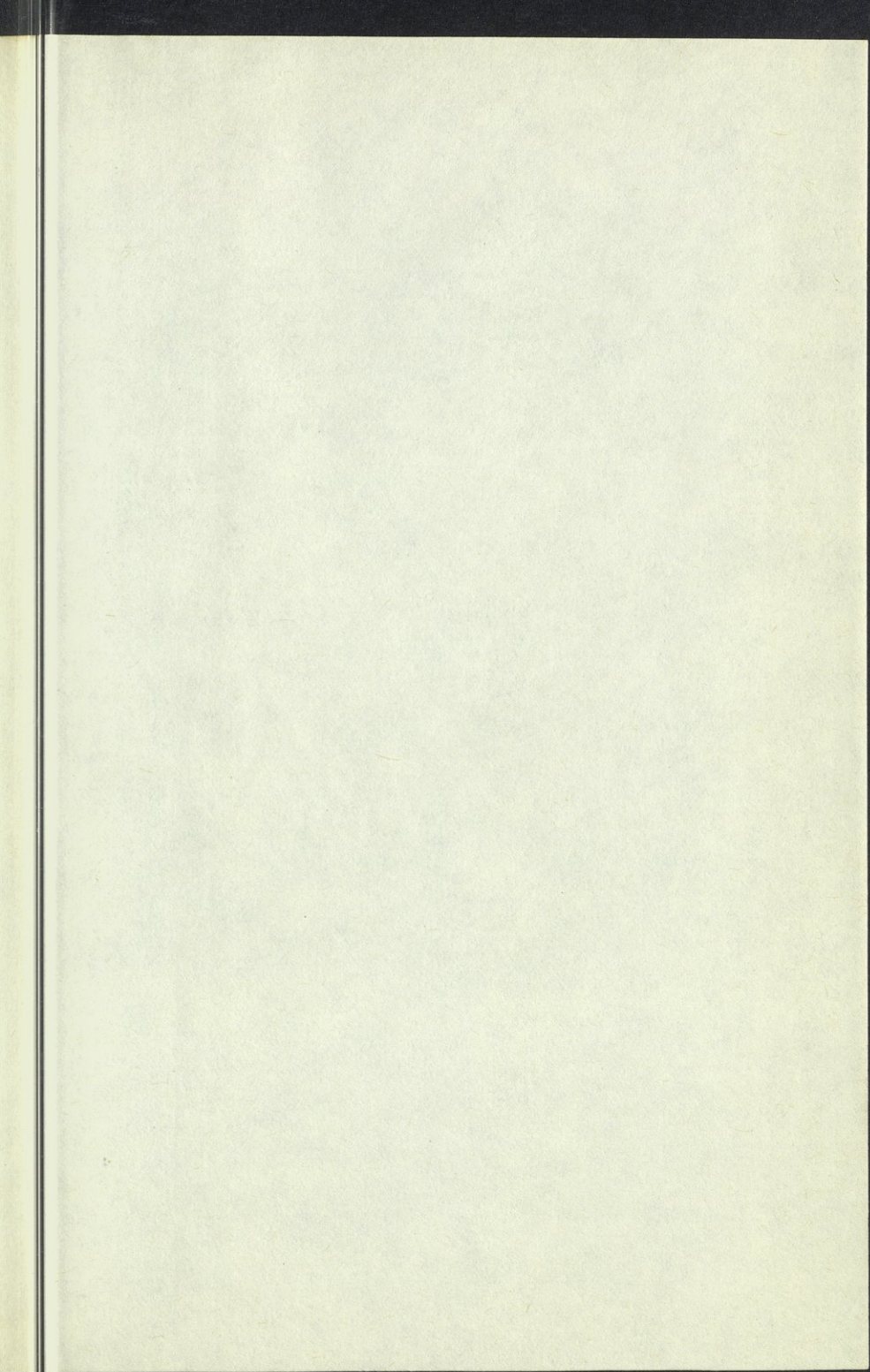
غيره ، فالواحد اسمه واحد ومعناه ملايين كثيرة ... وبهذا يصبح
العاشق مع المرأة الخيالية كالنسر حطمت مخالبه وصدع منقاره
ونسل جناحه ، فاسمه نسر ومعناه دجاجة ... !

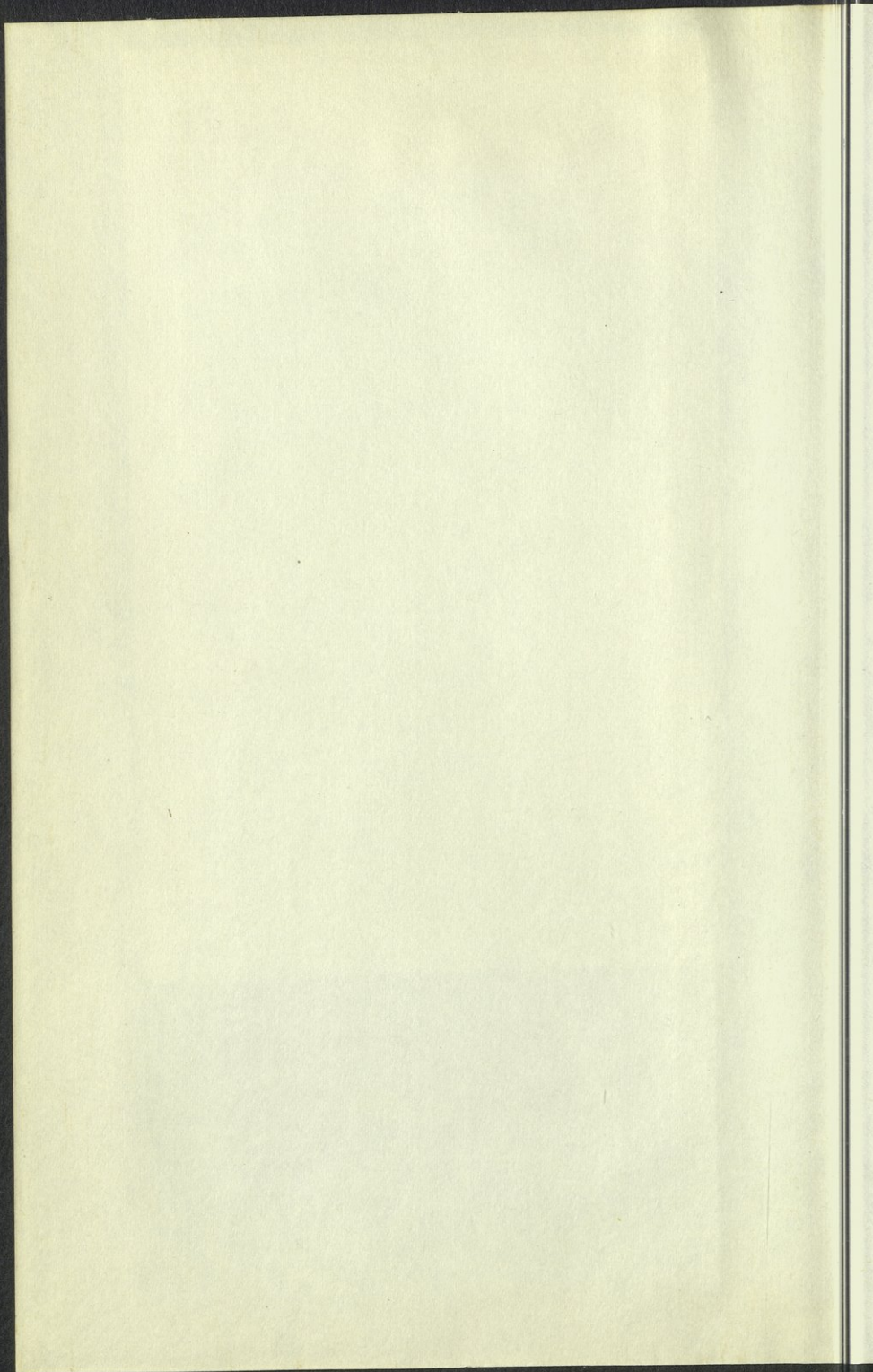
أف للشعر ! يعلو بالاشياء كلها علو الأسرار الإلهية التي
فيها ، ويعلو بالشاعر على كل الناس ، إذ كان فيه من روح الله
أكثر مما فيهم ؛ ثم لا يكون عقابه على هذا التآله إلا أن يرى
بصاحبه من فوق سماواته تحت قدمي امرأة إن كان في الشاعر
روح رجل تام ، أو بين سَفَلَةِ الخلق وسَفَائِفِ الاشياء ، إن
كان الشاعر مؤثت النفس أو ساقطها

آه آه ! إن الله لا يُنْعِمُ قلبا في الدنيا على أسلوب النعيم في الآخرة ،
ولكنه ترك للناس أن يعذبوا أنفسهم هنا على نحو مما هنالك ، فكلما
طَفِئَتْ لهم نار أو قدوا غيرهما يَحْتَرِقُونَ فيها ليدوقوا العذاب لا يميؤوا !
إن لنار الآخرة سبعة أبواب ، وكأن كل باب منها ألقى جمره
على الأرض ، فباب ألقى الوهم ، وآخر قذف الخوف ، وثالث رمى
بالطمع ، والرابع بالحرص ، والخامس بالآلم ، والسادس بالبغض ؛
أما السابع فرمى بالشر الذي يجمع هذه الستة كلها ، وهو الحب !
النار في الآخرة ، ولكن أرواحها في الناس لتسوق أرواح
الناس إليها !

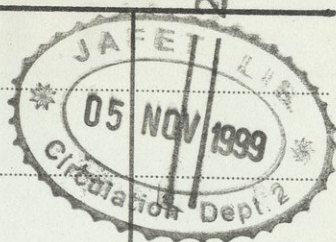








DATE DUE



892.74:R13A:c.1

الرافعي، مصطفى، صادق
السحاب الاحمر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01039143

A. U.

